سلسلة سير الأبطال

إبراهيم الفاتح

تأليف

عبد الفتاح حسن

يكباشي أركانحرب

مدرس بمعهد الدراسات

للضباط العظام

أحمد الأرفلي

سكرتير معهد الدراسات

للضباط العظام

الطبعة الأولى

١٩٤٩

obeikandl.com

صدقت إدارة العمليات الحربية على نشر هذا
الكتاب بخطابها رقم ١٦/٣/٣ بتاريخ ٢٦/٩/١٩٤٩

obeikandl.com

صورة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر

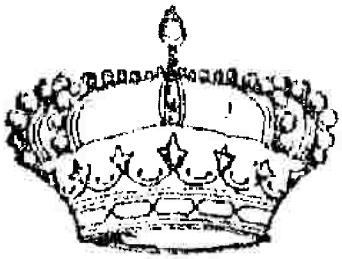

ان الجيش هو عدة البلاد ، وما من بلد
تقدم الا ووراءه جيش قوى ، وانى أطلب
من كل ضابط وجندى أن يبث هذه الروح
فى بيته وبيئته ليعلم الجميع الواجب عليهم
نحو الوطن .

رسالة ملكية سامية

محمد علي باشا رأس الأسرة العلوية الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تحتفل مصر هذه الأيام بذكرى وفاة عاهلها العظيم محمد على باشا منشىء مصر الحديثة وباعثها من رقادها الذى ظلت فيه طيلة ثلاثة قرون كاملة .

ومصر اليوم إذ تقيم هذه الاحتفالات لذكرى رجل هو خير من تولى زمامها إنما تحتفل بغرس ميمون بثه عاهلها العظيم فأينع وأثمر وخلف من وراءه ثمارا ناضجة كانت خير خلف لخير سلف .

وكأنما كان عهد محمد على باشا آذنا بخير عميم لمصر الخالدة فساق إليها فى تلك الآونة من الزمن قائداً فذاً ، ذلك هو البطل الفاتح إبراهيم ليكون

خير معين لوالده العظيم يشد به أزره ويشركه فى أمره ويوطد به دعائم ملكه .

ونحن إذ نعيد الكتابة فى تاريخ حياة هذا القائد العظيم فإن فى تكرار الكتابة تكرار للدرس والتذكرة بعظمة مصر الحديثة وتكملة لمباهج الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على وفاة رجل مصر العظيم محمد على باشا الكبير .

إن التقدير والتمجيد لعظماء الرجال صفة من صفات الأمم الناهضة فنحمد الله ونشكره على أن الشرق قد هب من رقاده فقام اليوم يمجد أبطاله ويحيي ذكراهم وليدفع شباب مصر إلى العمل فى ميدان البطولة والتضحية .

إبراهيم باشا وقد الجيوش المصرية في عهد محمد علي باشا

قـــوله

تسمى بعض ولايات تركية أوربا فى هذه الأيام بالروميلى بدلا من مقدونيه اسمها القديم . وعلى مسافة ١٢٨ كم شرق سلانيك و٣٢٠ كم غرب الأستانة تقع صخرة قائمة متوغلة فى البحر على شكل جواد فوقها مدينـــة قديمة حكمها قديماً أهل جنوه والبندقية زمناً طويلا . تلك هى بلدة لا كوال « الحصان » أو قوله .

و بنى هذه المدينة ابن ملك مقدونى تذكاراً لجواده ، ويحيط بها سور عال لصيانتها. و بها قلعة يحرسها بعض الجنود ولها قائد لحاميتها وقاض للقضاء بين الناس وقائمقام لإدارة شئونها وهو تابع لولاية سلانيك .

ويجد المسافر إليها طريقاً كثير التعاريج والملتويات بعد أن يسير فى طريق مستقيم يمتد بين سلسلتين من الجبال الشاهقة .

وتمتد إليها من قمم الجبال المجاورة قنطرة لجلب الماء الصافى اللازم لسقيا سكان المدينة البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة ... السواد الأعظم منهم مسلمون .

ولها مرفأ صغير صالح لرسو السفن التى ترد إليه وتغادره مشحونة بمختلف البضائع .

وفى تلك البقاع تعيش أمة على الفطرة الأولى ، وهى فى عاداتها وأخلاقها كالصخر الصلد أو أشد قسوة تساكن البزاة فى أوكارها وتشارك الجوارح فى بطشها وشوكتها .

وكان من عادات أهل هذا الإقليم فى الأزمان السالفة أنه متى أقبل الربيع دعا الشيوخ شبانها المجاهدين إلى التفرغ للملاذ والطعام والشراب قبل إقبالهم على سنة سيقضونها فى القتال . فيهرع الشبان إلى القرى المجاورة ، يسلبونها الأطعمة والأنبذة ويغيرون على الرعاة فيختطفون منهم ما يحلو لهم من الأغنام . ثم يولون وجوههم شطر البوهيمين فيأثرون منهم ما يروق لهم من النساء حتى إذا ما هيئت لهم ألوان الطعام الشهى جلسوا متربعين على

الأرض يتعاطون أكواب الشراب ويلتهمون الخراف التى تشوى أمامهم على النار .

وبعد أن يستمتعوا بليلتهم إلى أبعد حدود الاستمتاع ينقسمون إلى فرق وجماعات كل جماعة منها خمسون فرداً ويبدأون فى اليوم التالى فى السير فلا يقفون إلا عند حدود رودوب .

ويسمى أولئك الرجال بالجوفندجية وهى كلمة فارسية معناها الوثابون ، لأنهم على أهبة مستمرة للقتال والفرار والنزال .

بين هؤلاء القوم عاش إبراهيم أغا التركى الأصل يعمل رئيساً للحرس المنوط به تأمين الطرقات فى هذا الإقليم .

وعلى مسرح هذه الحوادث الجليلة وبين أولئك الرجال الأقوياء وبين تلك الغرائز الخشنة والطبائع الجافة أنجب إبراهيم هذا ولداً سماه محمد على ، وكان ذلك فى عام ١٧٦٩ م وهى السنة نفسها التى أنجبت للعالم الغربى بونابرت وولنجتون وغيرهم من العظماء .

ورأت والدته قبل وضعه فيما يرى النائم ما فسره لها العرافون من الخبر البوهيميين بأنها ستلد ولداً يهبه الله الغنى والشوكة والجاه . ولما كبر ابنها وترعرع أخبرته بما رأت فظل حافظاً فى ذاكرته تلك النبوءة الصالحة التى بثت فيه روح الأمل والنجاح .

وليس بغريب أن يتطلع هذا الفتى إلى الآمال الكبار، فهذا الوطن قد أنجب من قبل الإسكندر الأكبر و بطليموس ، كما أن اسمه حبيب إلى النفس كاسم النبى العربى الكريم اشتق من الحمد .

فهذا الوطن وهذا الاسم كفيلان بأن يدفعا بصاحبهما إلى السمو والارتقاء . ولنسمع الآن إلى محمد على يقص سيرة حياته بعد أن تحققت نبوءة والدته وفاز بما كان يطمح إليه من عز وسلطان — قال : رزق والدى بسبعة عشر ولداً لم يبق له منهم سواى ، مات تسعة منهم وهم الذين قبلى فى إبان العمر ، وهذا مما جعله يحوطنى بحنانه وحبه — وكان رفاقى فى الطفولة يهزءون بى فى أغلب الأحيان و يلقون فى أذنى جملة إن أنس لا أنس

قط مرارتها . كانوا يقولون : إننى إذا فقدت والدى فمن ذا الذى يعولنى، وماذا يكون مصيرى وإننى لا أملك شيئاً ولا أصلح لشى.

فأثرت هذه الكلمات فى نفسى تأثيراً جعلنى أعقد النية على تحسين حالتى بتسلطى التسلط المطلق على نفسى — واتفق لى أكثر من مرة أن أقضى يومين متعاقبين فى الركض وتحمل العناء ولا أصيب فيهما إلا القليل من النوم والغذاء . وما زلت كذلك لا أذوق للراحة طعماً حتى فقت أقرانى وسبقتهم سبقاً محسوساً فى صفوف الرياضة البدنية .

وأذكر أنه كان هناك مسابقة للتجديف فى وقت كان البحر فيه مضطرباً بالأمواج وكان موضوع المسابقة الوصول فى زورق إلى جزيرة قريبة من الساحل، فلم يسع المتسابقين وقد أعياهم التعب إلا العدول عن المسابقة أما أنا فقد سال الدم من كفى ولكنى لم أعبأ لذلك واستمريت حتى وصلت ، ولقصب السبق أحرزت . وتلك الجزيرة هى الآن من أملاكى وهى جزيرة طاشيوز .

ولما توفى إبراهيم أغا والد محمد على كفله عمه طوسون أغا . ولكن هذا الأخير ذهب ضحية انتقام الباب العالى منه فى أمر ما فأصبح محمد على يتيما من أبيه ومحروماً من كفالة عمه فاحتضنه جور بجى المدينة ورباه مع ابنه .

وكان يقطن فى مدينة قوله فى ذلك الحين رجل فرنسى يدير محلا للتجارة ، وكان لهذا الرجل نفوذ أدبى بين أهل المدينة فاغتنم هذه الفرصة لتوثيق روابط المودة والوئام بين الأوربيين والوطنيين ومنذ هذا الوقت أخذ أصحاب السفن فى ثغر مرسيليا مسقط رأس المسيو ليون هذا ، يصدرون إلى قوله البضائع والمصنوعات ويعودون منها بالتبغ والقطن والأرز والشمع والزيت .

رأى مسيو ليون فى الغلام محمد على مخايل النجابة والذكاء فأحبه حباً لا يقل عن حب الأب لابنه ولعل هذا كان السبب فى الميل الذى أبداه حاكم مصر للفرنسيين طول حياته .

ولم ينس محمد على قط أحداً ممن واسوه فى كربته ، فلقد بعث فى سنة ١٨٢٠ رسالة ودية إلى مسيو ليون يدعوه فيها إلى زيارته

فى مصر ، ولـكن الرجل وافته منيته فى اليوم الذى حدده للابحار من مرسيليا ، فحزن عليـه محمد على وعزى شقيقته تعزية رقيقة وأرسل لها مبلغاً من المال .

ولم يترك محمد على أى فرصـة طوال حياته تمر دون أن يغتنمها لإظهار ماخصه الله به من سعة الحيلة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة . فمن ذلك أن إحـدى القرى التابعة لقوله أبت دفع ما عليها من المال للجور بجى الذى كفله بعد عمه ، فاقترح محمد على أن ينفذه لقضاء هذه المهمة قائلا «لا أطلب منك سوى عشرة من الجنـد يأتمرون بأمرى » فأجابه الرجل إلى طلبه وأباح له كل وسيلة لتحصيل المال فقصـد من فوره مع ذلك النفر القليل إلى مسجد بروستا و بعد أن أدى فريضة الصلاة استدعى إليه أعيان البلدة الأربعة منتحلا لذلك سبباً استفذهم للمبادرة بالحضور . وما كادوا يصلون إليه حتى شـد وثاقهم وعاد بهم إلى قوله مهدداً بخنجره كل معترض أراد تخليص الأسرى من يديه . ولم يمض يوم حتى دفع المال المطلوب فأطلق سراحهم. ولما رأى الجور بجى

هذه الحيلة المبنية على الجسارة والإقدام رفعه إلى رتبة بلوك باش وزوجه من قريبة له ذات ثراء .

مولد ابراهيم

رزق محمد على من زوجته هذه خمسة أولاد ثلاثة من الذكور وبنتين ، وهم إبراهيم وطوسون واسماعيل ونازلى وتوحيدة . وكان ميلاد إبراهيم فى عام ١٧٨٩ وهى السنة المعروفة فى فرنسا بحوادثها السياسية الكبرى . واختلف الناس اختلافا بيناً حول بنوة إبراهيم ، فمن قائل أن محمد على تزوج من سيدة مطلقة سبق أن أنجبت ولداً هو إبراهيم من زوجها السابق وأن إبراهيم ليس ابناً لمحمد على ولكنه تبناه . ويختلف الكتاب أيضاً فى منشأ هذه الرواية وأسبابها ويقول بعضهم إن منشأ هذه الرواية يرجع إلى أسباب سياسية ، فقد أراد أعداء محمد على فى مصر من الترك والمماليك التشهير بمحمد على وتقليل هيبته وهيبة أولاده فادعوا هذا القول الباطل ظلماً وعدواناً .

وكل هذه أقاويل لا تستند إلى أساس صحيح ، بل الواقع والحوادث تكذبها فمن ذلك أن الباب العالى طالب محمد على عند بداية توليته على مصر بأربعة آلاف كيس من النقود . ولما لم يكن المال حاضراً لديه فى ذلك الوقت فقد أخذ القبطان باشا رسول الباب العالى يهدد باستخدام نفوذه لمساعدة أعداء محمد على إذا لم يصله المال ، و بعد أخذ ورد اتفق على أن يرسل إبراهيم بن محمد على رهينة إلى الإستانة ومعه الهدايا الثمينة وأن يبقى بها حتى يتم دفع المال كله . وقد أبحر إبراهيم إلى البسفور فى شهر اكتوبر سنة ١٨٠٦ .

وطبيعى أن الباب العالى وأعوانه، وخاصة أعداء محمد على، لم يكونوا من البلاهة بحيث يقبلون إبراهيم رهينة فى أيديهم إلى أن يصلهم المبلغ المطلوب من محمد على ما لم يكونوا على تمام الثقة من أن إبراهيم ابن لمحمد على وليس متبنيه .

وقد سأل أحد سفراء الدول الأجنبية يوماً محمد على إن كان إبراهيم ابنه حقاً أو ابن زوجته رزقته من زوج لها قبله ،

فقال بأن زوجته لم يكن لها قط بعل سواه وأنها رزقت منه بخمسة أبناء ولدوا جميعاً فى قوله من أعمال بلاد الروملى موطنه الأول وموطن زوجته ، وأن أكبر أبنائه أنثى توفيت منذ بضعة سنوات وأن إبراهيم ثانى هؤلاء الأولاد وأما الآخرون فهم طوسون واسماعيل . ثم قال محمد على باشا بعد ذلك إن إبراهيم هو الوحيد من بين أبنائه الذى قامت أمه على تربيته وذلك لأن الطاعون كان متفشياً فى قوله وقت مولده فلم تشأ أمه لخوفها عليه أن تأتى له بالمراضع .

ومن الأدلة القاطعة على صدق هذه البنوة ، الحنان والعطف الذين كان يبديهما محمد على نحو ابنه إبراهيم . أنظر مثلا إلى الخطاب الموجه من محمد على إلى ابنه ، تلمس فيه حنان الأبوة متجسما وهذا الخطاب مؤرخ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٢١ وكان طوسون ابن محمد على قد فوفى وأما إبراهيم فقد أصبح علماً من أعلام مصر واكتمل له إخضاع الوهابيين . وكان محمد على قد أرسله فى ذلك الوقت إلى السودان فى مهمة خطيرة وكتب محمد

على هـذا الخطاب وتهاه بهذه العبارات التي تفيض حناناً وأبوة وهذه نصها :

« ولدى إنى أحبك أنت وأخاك إسماعيل حباً لا يقل عن حبى لعينى وروحى فإذا ما عرَّضتك لهذه المتاعب الجمة وأقصيتك عن وطنك فذلك لكى نستطيع أن ننال جميعاً من المزايا مايرفع شأننا ويعلى قدرنا وأنت الذى تقدِّر ذلك لا أنا » .

ولما اتهم الباب العالى محمد على بأنه يتوانى فى القيام ببعض واجباته ، رد عليهم محمد على بخطاب يتبين بوضوح من بعض فقراته أن إبراهيم كان ابناً لمحمد على فقد قال « سأبين لمولاى وولى نعمتى بإيجاز مبلغ إخلاصى له . لقد رزقنى الله ثلاثة أبناء هم أحب إلى من ناظرى بل من حياتى ـ ومع ذلك فقد عينت أكبرهؤلاء الأبناء دفتردار اً وبعثته إلى السودان ولم تكتحل عيناى برؤياه من ستة أشهر . وقد أرسلته إلى هـذه البلاد لأن المماليك كانوا يعيثون فيها فساداً فكان إنقاذها من شرهم واجباً لابد من نفاذه ولذلك عهدت بهذه المهمة إلى ابنى وقرة عينى ثم أرسلت ابنى

الثانى طوسون على رأس حملة الحجاز . ومع أن فراق ابنى يقطع نياط قلبى فقد قبلت أن أحرم من ولدى من أجل سيدى ومولاى وطمعاً فى رضائه عن خادمه » .

وأظن أنه ليس هناك مجال للشك بعد هذا الحنان والعطف الملموس فى كتابات محمد على فى أن إبراهيم ابن حقيقى لمحمد على .

ومن الأدلة التى لا تدع مجالا للشك أيضاً أنه لما اختلت قوى محمد على فى أواخر أيامه عين الباب العالى فوراً إبراهيم والياً على مصر . ولو كان هناك لدى الباب العالى أي شك فى بنوته لطلب فى الحال من الدول حرمانه من عرش الولاية .

وإذا كانت كل هذه الدلائل لا تكفى لإثبات بنوة إبراهيم أفليس توارث الصفات والملامح بكاف أيضاً بصدق هذه البنوة ؟ لقد كان ابراهيم شديد الشبه بأبيه وما من أحد رآهما إلا وجدهما مثلين كأنما قدّا من أديم واحد ، وأهم صفاتهما المميزة والمشتركة بينهما قصر ذراعيهما الشديد .

وإذا ضربنا بكل هذه الدلائل والمشابهات عرض الحائط

فإن قوة الشكيمة والحنكة والقدرة على الإتيان باجل الأعمال لا تترك مجالا للشك فى أن هذا الشبل من ذلك الأسد .

قدوم محمد على الى مصر

على أثر زواج محمد على تفرغ لتجارة الدخان ، فربح منها من المال ما ألقى فى قلبه من حب التجارة ما لازمه طول حياته ، غير أنه كان به ميل طبيعى إلى الأعمال الحربية فكان كلما وجد فراغا من الوقت اهتم بها الاهتمام الشديد .

ولما أراد الباب العالى طرد الفرنسيين من مصر ، أمر بحشد الجند من كافة المقاطعات ، وكان جور بجى قوله من ضمن من طولبوا بتقديم بعض الجند ، فجهز قوة قوامها ٣٠٠ جندى وأرسلهم إلى مرميس لركوب السفن وجعل ابنه على أغا قائداً لهذه القوة ومحمد على نائباً له ، ولكن على أغا بعد وصول القوات التركية إلى أبى قير اكتفى بفخر القتال إلى هذا الحد وسارع بالعود إلى وطنه تاركا محمد علي على رأس هذه القوة .

وإن كان الحنين إلى الوطن قد دفع بعلى أغا إلى الإسراع

إلى بلده فإن سماء مصر الصافية ونجومها اللامعة وأرضها الخضراء قد استهوت محمد. فعزم على الإقامة بها ورغب فى أن يكون فيها مثواه .

وأظهر محمد على من شدة البأس ومضاء العزيمة والجرأة ما استحق عليه التقدير فرقى إلى رتبة القيادة .

وليس هذا الكتاب خاصا بمحمد على حتى نسرد تفاصيل ضروب بسالته وشجاعته أو نستمر فى الكلام عنه ، فبحثنا قاصر على إبنه ابراهيم ، ولذا نكتفى هنا بالقول بأن محمد على نجح بعد ذلك فى قلب العثمانيين فى مصر بالمماليك ، والمماليك بالأرنؤوط والأرنؤوط بالمصريين فكان الفوز الأخير لهؤلاء .

وبهر محمد على ببراعته أربعة من الولاة ، وأسقطهم جميعاً من كرسى الولاية وخلفهم فيها بلا خوف رغم تزلزله وتزعزعه . فقال أحد الولاة فى هذه المناسبة (إذا كان الجلوس على كرسى مصر ملحة طريفة فالبقاء فيها معجزة نادرة) وأخيراً استتب الأمر إلى محمد على وصدر الأمر من الإستانة بتعيينه والياً على مصر فى يوليه سنة ١٨٠٥

القاهريون ينادون بمحمد على واليا على مصر

وبينما كان محمد على يغالب الأقدار ويقاتل فى مصر من أجل القوة والسلطان كانت زوجته وأولاده لا يزالون بمسقط رأسهم فى قوله ، وما إن صدر أمر تعيينه إلا وشعر أن مركزه قد توطد فأرسل فى طلب إبنيه ابراهيم وطوسون ولم يكونا قد جاوزا بعد العقد الثانى من عمريهما ، ولم يكن أكبرهما قد أتم السنة السابعة عشرة ، وبعد يوم واحد من وصولهما إلى القاهرة أخذهما والدهما إلى القلعة وعين إبراهيم حاكما لها .

ابراهيم الرهينة

لم يكد يمضى إلا القليل من الوقت على حضور إبراهيم إلى مصر إلا وقدر له أن يعود ثانية إلى تركيا . ذلك أن أعداء محمد على ، كما أسلفنا القول ، جعلوا يضغطون عليه فرأى أنه من سداد الرأى أن يعد بإرسال المال إلى الباب العالى ليحتفظ بسيادته وسلطانه ، ولما لم يكن المال حاضراً إليه فقد وجد نفسه فى مأزق حرج فوعد بإرسال أربعة آلاف كيس من النقود ، وبعث محمد على بولده إبراهيم رهينة لدى الباب العالى حتى يتمكن من البر

بوعده فى إرسال النقود وحمّله بالكثير من الهدايا الثمينة . وقد أبحر إبراهيم إلى البسفور فى شهر اكتوبر عام ١٨٠٦ على إحدى مراكب الأسطول التركى الذى كان راسياً فى المياه المصرية وغادرها وقتئذ إلى تركيا .

ولم يكد إبراهيم يغادر الاسكندرية ليقيم فى الأستانة رهينة إلى أن يسدد محمد على المال الذى وعد بإرساله إلى الباب العالى إلا وتألب أعداء محمد على عليه وأخذوا يكيدون له ويؤكدون أنه لن يستطيع أداء الجزية التى وعد بإرسالها وأخذوا يشيعون بين الناس أن محمد على لا يعبأ بأمر سوى الاحتفاظ بملكه ولو ضحى فى ذلك برهينته ، وزادوا على ذلك بقولهم : إن الرهين لم يكن ابن الوالى الجديد وإنما متبناه .

ولا نستطيع الجزم إن كان محمد على قد بر بوعده وأرسل المال إلى الباب العالى لتخليص ولده الأكبر ولكن الثابت أن محمد على قد أدى إلى الباب العالى من الخدمات الجليلة ما استحق معها أن يعيد إليه ولده فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٧ .

هذا فضلا عن أن انتصارات محمد على على الحملة الانجليزية على مصر فى عام ١٨٠٧ قد رفعت من شأنه وجعلت أولى الأمر فى الإستانة لا يدخرون وسعاً فى إزالة أسباب الشقاق بينهم و بين واليهم على مصر .

ابراهيم بعد عودته الى مصر

كان همّ محمد على منذ ولايته على مصر إصلاح أمرها و إقرار الأمن والسلام فى ربوعها بعد أن عاثت المماليك فيها فساداً فعزم على تنظيم أمورها المالية و إصلاح هذه الأمة التى تدهورت أحوالها المالية إلى أسوأ حد .

رأى محمد على بثاقب نظره فى ابنه إبراهيم خير عون له فى أداء هذه المهمة الخطيرة فعينه دفتردارا على مصر ، أى مفتشاً عاما لحساباتها وكان ذلك فى عام ١٨٠٧ ولم يبلغ إبراهيم بعد العشرين من عمره. و يقول المؤرخون إن إبراهيم أدى هذه الأمانه بجدارة خليقة بالإعجاب .

وكان محمد على فى هذه الأثناء يستعد لإرسال حملة مصرية إلى الحجاز تنفيذاً لرغبة الباب العالى ، فقام إبراهيم بجمع المال لهذه الحملة بعدل وأمانة دون تعنت أو إكراه ، وكان إبراهيم واسع الفكر فلم يقصر أعماله على جمع المال وتدبير أموره بل وجّه التفاته إلى تحسين موارد البلاد فقام بإصلاحات واسعة فى الزراعة وخصها بمبالغ طائلة فانتعشت الأحوال على يديه .

وبعد أن مكث إبراهيم مدة يشرف على هذه الأعمال المالية التى اتسعت أبوابها ، عينه أبوه قائداً للحملة التى وجهها لقتال المماليك فهاجمهم فى صعيد مصر وطاردهم إلى بلاد النوبة .

ابراهيم حاكم الوجه القبلى

بينما كان محمد على يوطد أركان مملكته بمصر ، ويقضى على أمرائها المماليك وينتزع السلطة من أيديهم ، وبينما كان ابنه إبراهيم يوطد شئونها المالية ، كانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت وما سبقه من الأعوام تعانى المصاعب والأهوال من جراء

انتشار الفتن والثورات فى أرجائها . فاستنجد السلطان محمود بمحمد علي واليه على مصر لمساعدته فى إخماد هـذه الثورات ، وجعل السلطان يلح عليـه بضرورة إرسال حملة إلى الحجاز لتأديب الوهابيين الذين شقوا عصا الطاعة وغزوا بلاد الحجاز والعراق واستولوا على مكة المكرمة ومدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ومنعوا الحج ثلاثة أعوام و بسطوا سلطانهم على جزيرة العرب كلها وعلى بلاد العراق .

وأخذ محمد على يستمهله فى إرسال هذه الحملة حتى يستتب له الأمر فى مصر ويقضى على كافة العناصر المقلقة لأمن مصر وسلامتها ، وأخـيراً لم يسع محمد على إزاء إلحاح الباب العالى وشدة مطالبته بإرسال هذه الحملة إلا تنفيذ إرادته :

وكان محمد على دائم التفـكير فى هذه الحملة التى يطالب بها الباب العالى ، وأخيراً استقر رأيه على توجيهها لأنه رأى فيها إنقاذاً للسلطان و إنقاذاً للسياسة العثمانية التى يحتم عليـه الواجب مناصرتها . إذ أن مصلحة الدولة العثمانية تقتضى أن تعود الحالة

فى بلاد العرب إلى ما كانت عليه . ورأى محمد على بواسع فكره أن نجاحه فى هذه الحملة معناه انتقال الإشراف على بلاد العرب والبحار العربية من القسطنطينية إلى القاهرة وهى المركز التاريخى القديم للاشراف على تلك الجهات تولته مصر منذ قرون عديدة ولم تفقده إلا عند ما فقدت استقلالها فى القرن السادس عشر ولو أنها رغم ذلك استمرت تموله وتغذيه .

ففى اليوم الثالث من إبريل عام ١٨١١ أى بعد مذبحة المماليك فى القلعة، سير محمد على حملة على الحجاز قوامها سبعة آلاف من الجنود المشاة وألفان من الفرسان تحت قيادة ابنه طوسون ثم شفع هذه الحملة بقوة أخرى لنجدتها فى عام ١٨١٢ فتمكن طوسون من طرد الوهابيين من المدينة المنورة ومن مكة المكرمة ومن جدة . وأرسل محمد على ابنه الأمير إسماعيل إلى الإستانة حاملا بشرى استيلاء الجيوش المصرية على أرض الحجاز وقدم الأمير إسماعيل مفاتيح الكعبة فى ٣٠ يناير سنة ١٨١٣ إلى خليفة المسلمين على صنية من الذهب الخالص مرصعة بالأحجار الكريمة

فاستقبله السلطان فى جامع أيوب بجميع مظاهر الأبهة التى اشتهر بها آل عثمان وأنعم عليه برتبة الباشوية وسلمه سيفاً وخنجراً وثلاث ريشات مرصعة بالماس هدية إلى والده العظيم محمد على كما أهدى ابنه طوسون باشا ريشة من الماس .

وبينما كان العاهلان يتبادلان الهدايا والتحف الثمينة كان الوهابيون يجمعون جموعهم بقوات كبيرة لمهاجمة الجيش المصرى حتى اضطر طوسون إلى التقهقر وإخلاء مواقع عدة بعد أن تكبد خسائر كثيرة .

إزاء هذه الخسائر الفادحة وحيال إلحاح السلطان لم يجد محمد على بداً من الذهاب بنفسه إلى جزيرة العرب فأمر بتجهيز حملة أخرى تحت إمرته شخصياً وأقلع بها من السويس فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨١٣ بعد أن عهد بمقاليد الحكم فى الوجه القبلى إلى ابنه إبراهيم فأصبح بذلك حاكماً للصعيد .

ابراهيم قائداً لحملة الحجاز ونجد

استمرت الحرب فترة من الزمن سجالا بين المصريين والوهابيين ، لمس محمد على خلالها صعوبة القتال فى مثل هذه الأراضى الوعرة والفيافى القفراء مما عرّض جيوشه لكثير من الخسائر والمشاق فعمد محمد على إلى خديعة الوهابيين واستدرجهم إلى السهول والوهاد وتظاهر بالتقهقر أمام جموعهم فجازت الحيلة على أميرهم فيصل فترك الهضاب التى كان متحصناً بها واقتفى أثر الجيش المصرى .

وما أن توسط الجيشان السهول حتى تجمعت القوات المصرية على هيئة مربعات كما فعل نابليون عند ماغزا مصر فى عام ١٧٩٨ وأصلت العرب ناراً حامية وأوقعت بهم خسائر فادحة وغنم محمد علي خيمة فيصل بجميع محتوياتها من رياش فاخرة ، ومن ذهب وفضة .

وتابع محمد على زحفه فى داخلية البلاد واستولى على مواقع

القائد إبراهيم يسير أمام جنوده فى حلة الحجاز

حربية هامة . ولما اطمأن على سير القتال عاد إلى مصر تاركا القيادة لابنه طوسون .

وَهِنَتْ عزيمة الوهابيين بعد ذلك ورأوا أن لا خير لهم فى مواصلة القتال وخاصة بعد أن رأوا ما عليه مصر من الرخاء وسعة الثروة وما يستطيعه محمد على بهذه الموارد الغنية من الإكثار من القبائل الموالية له ومن إمداد جيوشه بسيل منهمر من العتاد والرجال لسنوات طويلة لا قبل لهم على الصبر إزاءها .

كما رأوا أن مصائب الحرب وكوارثها ستقع تبعاً لذلك على أوطانهم دون ثمرة أو منفعة وأن كثيراً من القبائل الموالية يتلهفون بفارغ الصبر الساعة التى يتاح لهم فيها الخروج عن طاعتهم . ولذلك بادروا بطلب الصلح من طوسون فعرض عليهم شروطاً قاسية فقبلوها . وبعد أن هدأت الحالة عاد طوسون إلى مصر فى نوفمبر سنة ١٨١٥

ولم ينقض وقت طويل حتى عاد الأمير عبد الله بن سعود إلى سيرته الأولى فأرسل إليه محمد على عدة رسائل يأخذ عليه فيها

سيره بين الأهالى بالظلم والجور وقتله الحجاج المسلمين من غير حق ومحاربته أهل الحرمين الشريفين وقدحه فى حق الحضرة السلطانية ونهبه الحجرة النبوية ويدعوه إلى رد ما سلبه منها .

وراوغ عبد الله فى إجاباته فأنذره محمد على بأنه سيسير إليه فى القريب العاجل جيشاً جراراً لا يعرف معنى للشفقة أو الرحمة وأرسل إليه ما نصه (سيصل إلى قطركم ولدنا العزيز إبراهيم ، فينزل به الهلاك والخراب ويرمى أعناقكم بسيفه ولا يدع فى حاضرتكم حجراً على حجر ويسوقكم إلى أعتاب السلطان) .

ولكن الوهابيين استمروا على خطتهم فى نقض العهود والمواثيق التى قطعوها على أنفسهم ، فجمعوا ثلاثين ألف مقاتل تحت إمرة عبد الله وأخيه فيصل . وعلم محمد على بهذه الثورة الجديدة فأمر بتجريد حملة ثالثة .

وفى أثناء تجهيز هذه الحملة مات ابنه طوسون .

ورأى محمد على أنه أثقل على ولده ، وحمله عبئاً ثقيلا ، عبء الاتفاق مع الوهابيين ، كما فكر فى الصعاب والمشاق الجمة التى

لسها بنفسه عند محار بتهم ، فعزم على أن يختار لهذه المهمة الشاقة أصلح الناس للقيام بأعبائها الجسيمة . وكان محمد على ممن يؤمنون بقيمة الشورى والاستنارة برأى قواده ورجاله النابهين ، فعقد مجلساً منهم وأخذ يشرح لهم أسباب دعوتهم وخططه الحربية ، ثم أشار إلى تفاحة ملقاة أمامهم على بساط كبير مفروش فى أرض الحجرة وقال لهم « من يستطيع منكم أن يصل إلى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتينى بها من غير أن تطأ قدمه هذا البساط وليته قيادة الحملة على نجد » .

وسارع الأمراء والقواد كل يلقى بجسده على البساط وقدماه تكاد تلمسان حافتها ثم مد ذراعه لكى يصل إلى التفاحة ولكنها كانت بمنأى عنهم لا تصل إليها أيديهم .

وأخذ كل منهم يفكر فى طريقة للوصول إلى غرضه ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الإتيان بها .

وأخيراً قام إبراهيم أكبر أبناء محمد على وكان قصير القامة ممتلىء الجسم وانحنى إجلالا لوالده واستأذن منه فى أن يجرب حظه

هو الآخر فى هذه المحاولة . وسخر الحاضرون جميعهم من إبراهيم وأيقنوا أنه لا محالة فاشل فى بلوغ مقصده ، ولكن هذه السخرية انقلبت تواً إلى إعجاب وإكبار عند ما رأوا ابراهيم ينحنى ويطوى طرف البساط إلى الداخل حتى دنا من التفاحة فتناولها وقدمها إلى والده وفى التو ولاه محمد على قيادة الجيش المصرى .

ابراهيم منقذ الحرمين الشريفين

وفى اليوم الخامس من سبتمبر عام ١٨١٦ ودّع إبراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة والعظماء ، ولما ذهب لوداع والدته عانقته ووضعت بيدها الكريمة فى عنقه عقداً من الجواهر الثمينة وقالت له لا تنزع هذا العقد من عنقك ليلا ولا نهاراً حتى تصل إلى الحجاز وتضعه بيدك على ضريح رسول الله .

وفى صبيحة اليوم التالى غادر إبراهيم مصر إلى قنا ومنها إلى القصير ثم إلى ينبع ومنها إلى المدينة المنورة .

وفى أثناء إقامته فى ينبع انكب على البحث فى أحوال

أهلها ودراسة أخلاقهم وعاداتهم وإعدادهم إلى ما يوافق مقاصده .

وفى أول مقامه هناك استعرض قوات جيشه فأعجبه حسن منظرهم وخفة حركاتهم كما أثر بذلك فى نفوس سكانها فأقبلت إليه وفود القرى المجاورة والقبائل الموالية يقدمون إليه كل ما فى أيديهم من وسائل النقل .

وما كاد يتم تجهيز قواته حتى سارع إلى المدينة المنورة ماراً (ببريكه) قبلى ينبع ثم اجتاز كثبان الرمل المتحركة التى يأوى إليها طير الرخم ، وهناك قمة تنسب إلى علىّ بن أبى طالب لأنه وقف عليها يوم بدر ، فوقف إبراهيم خاشعاً أمام أضرحة الصحابة الثلاثة عشر الذين قتلوا فى هذه الواقعة عند ما التحم جيش رسول الله مع جيش الكفار ، ثم زار مسجد الغمامة التي أظلت النبى صلوات الله عليه ، وأمر ببناء مسجد فى هذه البقعة من الأرض ثم تابع سيره حتى دخل المدينة من باب القاهرة وقصد تواً إلى الحرم الشريف ووقف خاشعاً أمام قبر المصطفى عليه السلام يقرأ الفاتحة

ويتمم بالدعوات ، ثم وضع العقد الذى أهدته إليه أمه . فبسط شيخ الحرم كفيه إلى السماء ودعا الله جهرة أن يكلأ إبراهيم ابن محمد على بعين عنايته وأن يلهمه الحكمة والصواب فى تمزيق شمل أعداء الدين وأعدائه ، وتأييد الشرع ونصرة كتاب الله الكريم .

وتلاه إبراهيم باشا فدعا الله أن يشد أزره ويقوى ساعده وتضرع إليه متوسلا أن يمنحه المعونة فيما هو مقبل عليه من كفاح ثم رفع بصره إلى السماء وقال :

« اللهم اجعل التوفيق حليفى وأعنى على استجلاء نوايا أعداء ديننا القويم . اللهم هبنى من لدنك قوة على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم »

ثم أقسم ألا يدخل السيف فى غمده حتى يفتك بهم ويفنيهم وأن يعتق جميع ما ملكت يمينه من الأرقاء بيضاً أو سوداً وألا يشرب الخمر ما بقى حياً ، وأن يذبح ثلاثة آلاف كبش على جبل عرفات .

وغادر إبراهيم المكان ولم يترك أحداً من الأئمة والمؤذنين وحراس الحرم والفقراء والمساكين ، إلا ووهبه شيئاً من المال ، فانطلقت الألسنة بالدعاء له وما كاد يصل إلى داره حتى وفَّى بما عاهد الله فأعتق العبيد وعمد إلى زجاجات الخمر فكسرها وأهرق ما فيها .

وأصدر إبراهيم أوامره المشددة بضرورة المحافظة على النظام ورعاية حقوق الناس ونفذ عقوبة الجلد والإعدام على كل من خالف أوامره .

فبادر أهل المدينة إلى الانحياز إلى جانبه كما انحاز إليه سكان ينبع من قبل .

وسرت أخبار قسوته وصرامة أوامره على جنده بين العرب فارتاعوا لها وأدركوا مقدار ما سينالهم من عقاب وتنكيل إن خالفوا تعاليمه .

ولم يكن الأمير عبد الله زعيم الوهابيين جباناً أو هيابا ، ولكنه رأى من الحكمة أن يستعرض إبراهيم فبعث إليه برسول

يفاوضه فى شروط الصلح وحمّله رسالة ودية رقيقة ، ولكنه لسوء الحظ كان قد وقع فى يد إبراهيم قبل ذلك رسالة أخرى بعثها عبد الله إلى أحد زعماء القبائل يقول فيها « لا يغرنك غير مصر ونهيقه فإنه لا يملك لك نفعاً ولا ضراً »

فلما تسلم إبراهيم الرسالة من رسول عبد الله ألقى عليها نظرة سريعة وقهقه ضاحكا وأمر بإحضار الرسالة الأولى وقال للرسول : «هاك ما يكتبه عبد الله عنى إلى أصدقائه» ثم أشار إلى الرسالة الرقيقة وقال «هاك ما يكتبه إلىّ. قل لأميرك هذا : إننى سآتيه بالجواب بنفسى فى الدرعية » .

وسارع الرسول إلى مولاه ينبئه بالخبر و يستصرخه أن يعد ما استطاع من قوة لمواجهة إبراهيم .

ابراهيم وعبد الله بن سعود

لقد كان عبد الله حكيماً صائب الرأى فلم يسارع إلى مهاجمة إبراهيم بل عمد إلى خطة تدل على حذق ومهارة فى شئون القتال

إذ عزم على انتظار إبراهيم فى دياره بعد أن يكون هذا قد قطع الفيافى والقفار وأخذ منه الجهد والتعب كل مأخذ وأنهكت قوى رجاله ودوابه و بعدت الشقة بينه و بين قواعد إمداداته ، فيسهل والحالة هذه الانتصار عليه ناهيك بما ستتعرض له قواته طوال الطريق من مهاجمة القبائل لها .

ولئن كان عبد الله قد أظهر منتهى الحكمة فى اتباع هذه الخطة فإن إبراهيم لم يكن بالرجل المتسرع المتهوس يوم صاح فى الرسول الذى حمل إليه الرسالة أن عد إلى مولاك فاخبره بأنى سآتيه بالجواب بنفسى فى الدرعية . بل لا شك أنه كان يعى ما يقول وهو إن قال فهو القادر على تنفيذ قوله .

كان إبراهيم يعلم علم اليقين أن الطريق إلى الدرعية محفوف بالمخاطر ولكنه رسم الخطة لنفسه وعزم على تنفيذها .

ولم يكن عبد الله قد علم بقصة إبراهيم يوم طوي بساط الحجرة ليصل إلى التفاحة التى وضعها والده فى وسط البساط

ولو علم لعرف أن إبراهيم لن يلقى بنفسه وسط الصحارى والهضاب ولكنه سيطوى بساط الجزيرة طيا .

نفذ إبراهيم خطته الموضوعة بالسير فى الوادى الطويل المؤدى من مكة إلى نجد ، فتحاشى بذلك مقاتلة القبائل الضاربة فى وادى الدواسر والمعروفة بشدة تعصبها .

وكان إبراهيم سياسياً بعيد النظر فحرص على مصادقة القبائل القاطنة على هذا الطريق كما حرص أيضاً على أن يظهر لهم أنه لم يأتى إليهم فاتحاً بل صديقاً مسالماً .

ولم يكن ليصعب على إبراهيم وجيشه تشتيت هذه القبائل وإفنائها إذ أنها لم تكن قوة يعتد بها ولكنه طمع فى معونتهم لتخفيف أهوال الطريق على قواته . وعلى ذلك عمل على استرضاء تلك القبائل فأصدر الأوامر المشددة إلى ضباطه وجنوده بعدم إيذاء الأهالى العزل غير المحاربين أو الإساءة إليهم . كما دفع بسخاء لكل بدوى أو حضرى ثمن ماقدمه من ماء أو طعام لجنود جيشه ، فسارعت القبائل إلى تقديم فروض الطاعة

والخضوع للمصريين ، إلا أقلية ضئيلة ، وحتى هؤلاء لم يقس عليهم إبراهيم بل أظهر الرأفة بهم عن قصد وتدبير ولكنه اشترط عليهم أن يجلوا عن مساكنهم ويسبقوه إلى أواسط نجد .

وكان غرض إبراهيم من ذلك أمرين : أولهما ألا يتركهم وراء ظهره . وثانيهما أن يضطرهم إلى الالتجاء إلى عبد الله فتنفذ موارده فى إطعام هؤلاء اللاجئين اللذين هم خليط لا يرجى من ورائهم نفع .

ورأى إبراهيم أن من مصلحته أن يضم هذه القبائل الضاربة فى الصحراء إلى جانبه فلا غرابة أن أظهر لهم الرأفة والحنان وقد نجح فى هذه الخطة نجاحاً جعل مقام عبد الله فى بلده يعود عليه بأوخم العواقب .

ولم يجد إبراهيم الطريق أمامه إلى الدرعية مفروشاً بالورد والرياحين أو أن الأمور أمامه سهلة موفورة بل لاقى صعاباً جمة قبل أن يستطيع إخضاع هذه البلاد .

وقد حمى وطيس القتال عند بلدة الرس وضرب إبراهيم الحصار

على حصنها وتكبد فى هذا الحصار خسارة تزيد على ثلاثة آلاف من الرجال .

ولما تحداه الأمير النجدى ورفض التسليم هجم عليه هجمة صادقة فسقط فى يده . ولكنه لما دخل المدينة لم يجد أعداءه فيها فقد أخلوها قبل أن يدخلها وانسحب عبد الله بجيوشه إلى الدرعية عاصمة بلاده وبينها وبين الرس ٨٠٠ كيلو متر على طريق لاماء فيه ولا نبات . واستمر إبراهيم فى سيره حتى وصل بلدة عنيزة فقابلته بالترحاب ، فحصنها ليجعلها نقطة ارتكاز له إذا اضطر إلى التقهقر ، وتابع السير حتى دخل بريدة عنوة وفتك بحاميتها ثم تقدم حتى وصل المذنب ثم الشقراء فسلمت له فى ٢٣ يناير سنة ١٨١٨ وبذا أصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحاً أمامه .

وأقام إبراهيم بهذا المكان مستشفى ترك بها كل من لم تساعده قواه على متابعة السير .

وفى اليوم السادس من إبريل حاصر الدرعية عاصمة

الوهابيين و بعد أن استمر الحصار عدة أسابيع هبت عاصفة رملية اقتلعت خيام المصريين ورمت بجذوة نار على مستودعات الذخائر فنسفت كثيراً من صناديق البارود والخرطوش وامتدت ألسنة اللهب فى لمح البصر إلى المدينة .

ومرت ساعة من الزمن خيل للقوم فيها أن الأقدار ستجعل من الدرعية موسكو أخرى فى آسـيا . وأراد كل من إبراهيم وعبد الله أن ينتهز فرصة الاضطراب الواقع فى صفوف عدوه فيجهز عليه ، ولـكن شـاءت الأقدار أن يخفق كل منهما فى مقصده إذ تغير اتجاه الريح فخمدت النيران .

وظل إبراهيم ثمان أيام طوال مغمض العينين من جراء لهب النيران ومن تأثير العاصفة الرملية الهوجاء .

ولـكن إبراهيم لم يكن ممن يقعدهم المرض ، فحمل على الدرعية فى الرابع من سبتمبر حملة صادقة جعلت عبد الله يسارع إلى طلب الصلح . وطلب الأمير الوهابي إلى إبراهيم أن يعفو عن أهله وجنوده و يؤمنهم علي حياتهم وألا تخرب عاصمته وأن

يخرج هو سالماً . ولم ينس إبراهيم المفتصر أنه ليس إلا قائداً من قواد السلطان ليس له الحق فى التصرف فى شئون ملكه وأحوال رعاياه دون الرجوع إليه فلم يقبل هذه الشروط ، وطلب منه أن يرافقه إلى مصر حيث يكون فيها موضع الإجلال والإكرام حتى تصل أوامر السلطان الواجب عليه إطاعتها .

وعامل إبراهيم باقى الأسرى مثل هذه المعاملة الطيبة فلم يقتل منهم أحداً ولم يسىء إلى أحد ، وعامل الوهابيين عامة بمنتهى التسامح وكرم الأخلاق .

ويتهمه بعض المؤرخين بالقسوة والخشونة ويلصقون به صفة الغرائز الدموية وشغفه برؤية الدم المراق ، كما يصفه بعضهم بالمستبد الغاشم السفاح ، ولا يشير إليه غلادستون فى حديثه إلا بالتركي الشرس .

ولا أدرى أية عقلية هذه التى ساقت هؤلاء القوم إلى مثل هذه الأقاويل الكاذبة ، وأغلب هؤلاء الكتاب لم يلمسوا هذا الرجل عن قرب أو يعاشروه أو يشاركوه أهوال القتال ، حتى يمكنهم أن

يحكموا عليه حكما صحيحا ، فلا تزيد هذه الافتراءات عن إشاعات تداولتها ألسنة الحقد والحسد وأملتها عوامل البغض والضغينة .

ولو تمشينا جدلا مع هؤلاء القوم فى أكاذيبهم ، فهل كانوا يرجون من قائد مثل إبراهيم ، يقود جيشاً جمع خليطاً من أشرس الجنود وأشدهم بأساً ، ويحارب قوماً متعصبين أخرجهم تعصبهم الدينى عن جادة الحكمة والصواب ، ويخوض معارك وحشية لاهوادة فيها ولا رحمة ... أكان هؤلاء الكتاب يرجون من إبراهيم أن يكون رخواً رطباً ليناً متسامحاً ؟

خليق بهؤلاء الكتاب أن يبحثوا عن هذه الصورة التى صورها لهم خيالهم فى محيط الشعراء والفلاسفة ، أو فى بطون روايات الغرام ، لا فى محيط القواد الذين وطدوا لأممهم ملكا على أسنة الرماح .

لم يكن إبراهيم شرساً ولا سفاحاً ، بل ولا مستبداً غاشماً ، وإنما كان قائداً شديد البأس يسير فى عمله سيراً تمليه عليه الحكمة وحسن التدبير ، فلقد كان رجل حرب وحكم فى وقت واحد ،

أجبرته الضرورة السياسية ، لا الميل إلى القوة والصرامة ، على أن يأخذ الناس بالشدة تارة و باللين تارة أخرى.

شرع إبراهيم فى إقرار السلام والنظام فى البلاد التى فتحها فأخذ يطوف بنفسه فيها و يعيد الأمن والسكينة إلى ربوعها . كما عنى عناية خاصة بتحصين المواقع الحربية الهامة ، وأمر بحفر الآبار فى المناطق الجدباء .

وسار إبراهيم على سياسته التقليدية التى اتبعها أثناء زحفه فى الحجاز وأثناء إقامته فى نجد ، فجمع بين سياسة اللين والمسالمة مع رؤساء القبائل وعامة الشعب ، وسياسة الشدة المؤدية إلى تحقيق أغراضه مع المتعصبين والمتعندين واضعاً نصب عينيه قواعد العدل والرق والنظام نحو جميع السكان .

كما عمل إبراهيم على إزالة أسباب الخلاف بين طوائف المسلمين صوناً لوحدتهم ، فاستدعى إليه رجال الدين والفقهاء الوهابيين و بين لهم أنه يود أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم

وعقائد أهل السنة من المسلمين ، واستدعى جماعة من أكابر علماء السنة كان قد استصحبهم معه عند مجيئه من مصر .

واجتمع علماء الطائفتين فى مسجد الدرعية ثلاثة أيام طوال يتناقشون و يتجادلون و يظهرون الفروق الدقيقة بين المذهبين .

وظل إبراهيم خلال هـذه الأيام المتعاقبة ، مصغيا منتبهاً لاتغمض له عين ، وحكما نزيهاً بين المتناظرين لايقاطع خطيباً ولا يرفع صوته على أحد . وكان يسود المكان سكون تام فقد كان مجرد وجوده كفيلا باقرار الهدوء والنظام . وسارت المنـاظرة كما أرادها فى جو مشبع بروح الحرية والأدب .

ولمـا حل اليوم الرابع أقفل إبراهيم باب الجدل وكان لاشك قد كون لنفسه رأيا عن هذا الخلاف عمل فى التو على تنفيذه بأن سأل شيخ الفقهاء الوهابيين «هل تؤمن بأن الله واحدوأن الدين الصحيح واحد وهو دينكم ؟ » .

فأجابه الشيخ « نعم »

فرد عليه إبراهيم قائلا « وما رأيك فى الجنة وما عرضها ؟ »

فقال الشيخ : « يقول الله عز وجل فى كتابه الكريم إن

عرضها كعرض السموات والأرض وأنها أعدت للمتقين منذ خلق الله الخلق »

فأجابه إبراهيم « إذا كان عرضها السموات والأرض كما تقول ، وإذا وسعتك أنت وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، أفلا تكفى شجرة واحدة من أشجارها لأن تظلكم جميعاً ؟ فلمن إذن بقية الدار ؟» فسكت ولم يجب .

وقد زعموا أن إبراهيم تملكه الغضب أثناء المناقشة فأمر برمى رقابهم فلم تمض دقائق معدودة حتى كان مسجد الدرعية مقبرة للقتلى من فقهاء الوهابيين !

ولا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الواقعة . ولا بد أن إبراهيم برىء منها لما فيها من مخالفة لشريعة الإسلام التى قامت على حرية الرأى والإقناع ، ولما عرف عن إبراهيم من حبه للعلم واحترامه والعلماء ، ولأنه لم يسمع فى التاريخ أن قائداً قتل عالماً من العلماء . وقد نهى الرسول قواده عن التعرض للرهبان بأى أذى . فكيف نبيح لأنفسنا المحافظة على أرواح علماء الأديان الأخرى ونفترى على إبراهيم تهمة قتل علماء الإسلام ؟ إننا لانستطيع أن نصدق هذه الفرية التى لا يقبلها أو يقرها عقل سليم !

عودة ابراهيم

وفى شهر ديسمبر عام ١٨١٦ عاد إبراهيم إلى مصر فأقيمت له الاحتفالات الباهرة وخرجت مصر عن بكرة أبيها تستقبل قائدها المعظم .

وود محمد على لو ينزل بنفسه ليستقبل ولده إبراهيم و يشارك الشعب فى الاحتفال بمقدمه ولكن عاطفة الأبوة دفعته لأن ينزوى فى أحد أركان مسجد السلطان الغورى ليرقب ولده الأكبر عن كثب مبتعداً عن أعين الشعب حتى لا يكون لأحد غير إبراهيم شىء من عظمة الاحتفالات وجلالها .

تعليق على حرب الوهابيين

لم يكن انتصار إبراهيم وجيشه المصرى على الوهابيين سهلا رخيصاً ، بل ضحى فيه بالكثير من الأنفس والعتاد ولاقى الصعاب والأهوال . فالجيش النجدى لم يكن لتنقصه الصفات الكفيلة بالفوز ، إذ كان جيشاً مطيعاً بقدر ما كان باسلا قنوعاً

متحمساً للعمل لا يكل عن مزاولة القتال . وكل ما كان ينقصه هو قائد قدير على السير به إلى مواطن النصر ملم بأساليب الحرب بعيد النظر حاضر الذهن .

والظاهر أن الجرأة التي أظهرها المصريون منذ البداية قد بهرته فأفقدته الرشد والصواب وزعزعت ثقته في المستقبل وتركت لليأس مسرباً إلى فؤاده ، وقد كان الواجب عليه أن يتخذ له قاعدة في حدود بلاده وأن يستغل طبيعة الأرض الجبلية الوعرة وما يتخللها من الجبال الشاهقة والفيافي المترامية ويصرف همه إلى مناوشة القوات المصرية ويمنع وصول القوافل المحملة بالإمدادات وأن يقطع خط الرجعة بشرازم من الخيالة يدربها تدريباً خاصاً على مهاجمة مؤخرة الجيش المصري ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله وترك الفرص كلها تفلت من يديه ولم يستفد منها بشيء .

وفوق كل هذا وذلك فإن سعوداً فقد في العهد الأخير من حكمه الكثير من الصفات الفاضلة التي يمتاز بها أمراء البيت السعودي المشهود لهم بالسير بين رعيتهم بالعدل والإنصاف ،

فأعار أذنيه للوشايات فهام فى بيداء الأهواء الجائرة وأطاع الشهوات المفضية إلى التحاسد والتحاقد والانشقاق .

وفضلا عن هذا فقد كان قليل الاطلاع على أساليب التصرف فى مصالح القبائل الخاضعة له فنأت عنه وهو أشد ما يكون حاجة إلى سواعدها .

تكلمنا كثيراً عن هذه الحملة من الناحية العسكرية وأرى أنه يتحتم علينا أن نعلق على هذه الحملة من الناحية السياسية ولو بكلمة بسيطة . الواقع أن جهود هذه الحملة من الناحية الحربية كللت بالنجاح ولكنها من الناحية السياسية لم تنجح إلى حدما فى القضاء على الوهابية كمذهب و إنما قضت فقط على القوة السياسية والحربية الوهابية . ونجحت هذه السياسة بعض الشىء فقامت القوة الوهابية الجديدة أميل إلى التساهل وعدم التعصب والرغبة فى التعاون مع باقى الدول الإسلامية . كما كان للسياسة الرشيدة التى اتبعها إبراهيم أثر ملموس فى خلق روح من الألفة بين الشعبين ظهرت آثارها بعد فترة من الزمان .

بعد أن طرد محمد على المماليك من مصر فر بعضهم إلى إقليم دنقلة وقاموا بحركة ونشاط وأخضعوا لنفوذهم ملوك القبائل وشيوخها .

وعادت إليهم روح الكبرياء والجبروت فحدثتهم أنفسهم بالنزول إلى مصر ورأى محمد على بثاقب نظره أن يهاجمهم فى عقر دارهم الجديد قبل أن يبدأوه بالهجوم وأن يطردهم من ملاجئهم التى آووا إليها ليقضى عليهم القضاء الأخير .

ولم يكن غرض محمد على مقصوراً فقط على محاربة المماليك بل تعداه إلى أغراض أخرى فقد وصل إلى علمه أن دنقلة وسنار ودار فور وكردفان تحوى الكثير من الذهب والماس فعزم على استخراج هذه المعادن النفيسة من مناجمها .

كما أراد أن يغتنم هذه الفرص ليتخلص من جنوده الذين أعيته الحيل فى إصلاحهم بعد أن فقدوا روح الطاعة والنظام .

إبراهيم الفاتح

وأخيراً جنّد جنوداً من السودانيين المشهود لهم بالطاعة والصبر والقناعة والبسالة فى القتال بدلا من هؤلاء .

كل هذه أسباب صحيحة ووجيهة ولـكن ماعرف عن محمد على من بعد النظر وصدق العزيمة تحدونا إلى الاعتقاد أنه كان ينظر من وراء فتح السودان إلى أسباب أبعد من هذا وأجل .

فلا شـك أن محمد على كان يؤمن بأن ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لهما وخاصة لأن مصر تستمد حياتها من النيل وهى لا تأمن على حياتها إذا تملـكت منابع النيل دولة أخرى ولا يتحقق استقلال مصر التام إلا إذا شمل وادى النيل من منبعه إلى مصبه وصارت هي والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة .

* وكان محمد على يؤمن بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر فحدودها الجغرافية والقومية تشمل وادى النيل من منبعه إلى مصبه فهى والحالة هذه وحدة سياسية واقتصادية لاتقبل التجزئة .

(*) مستمد من رأى الأستاذ شفيق بك غربال .

ورأى محمد على أن السودان وإن كان قد فصل عن مصر فى بعض الأزمنة قديما أو حديثاً فما كان ذلك إلا خروجاً عن القاعدة الأزلية — وهى أنه جزء لا يتجزأ من مصر — وأنه قد آن الأوان لأن يعاد إلى حظيرة الوطن .

* وقد قامت جميع دراساتنا لحروب السودان حتى الآن على أوضاع مقلوبة غير تاريخية ـ ذلك لأن المؤرخين كانوا متأثرين بأوضاع أوروبية صرفة فشبهوا امتداد حكومة محمد على للأراضى الواقعة فيما وراء حدود الولاية العثمانية بالامتداد الذى قامت به الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر — والفرق كبير بين الحركة المصرية والحركات الأوربية ، فلم يكن امتداد محمد على للجنوب حربا بالمعنى الصحيح ولا هو فتحاً لبلاد معادية وإنما كان مجرد تأمين للحدود الجنوبية وإعادة للنظام فى بقاع عمت فيها الفوضى والاضطراب ، أو هو على الأصح حرب قومية بحتة . والغرض منها من أسمى أغراض الحروب وأنبلها قصداً إذا كانت

(*) تحليل الأستاذ شفيق بك غربال .

الغاية منها تأليف وحدة مصر السياسية والمحافظة على كيانها القومى .

وفى عام ١٨٢٠ تحركت الحملة المصرية إلى السودان بقيادة الأمير إسماعيل وتجمّعت فى أسوان واجتازت الحدود المصرية ودخلت دنقلة وشتتت شمل المماليك بسهولة . واستمرت الحملة فى سيرها حتى دخلت كورتى ثم بربر فى مارس ١٨٢١ وكذا استولت على شندى بعد شهرين واستمر إسماعيل يجد فى السير حتى وصل إلى ملتقى النهرين عند المكان المعروف بالخرطوم الآن ثم اتجه نحو النيل الأزرق واستولى على سنار . وفى هذه الأثناء انتشر المرض بين أفراد الجيش فطلب إسماعيل المدد من أبيه .

مجىء ابراهيم باشا ثم عودته

ظل إسماعيل باشا فى مكانه متوقفاً عن التقدم قلقاً على مصير جيشه .

وفى اليوم الثانى من أكتوبر عام ١٨٢٠ وصل إبراهيم

باشا بطل الحجاز يصحبه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض ، ومعه المؤن والملابس فانتعش الجيش لقدومه ودبت فيه روح الأمل والشجاعة ، ولا غرو فإن مجرد وجود بطل الحجاز وقاهر الوهابيين معه كفيل بأن يرد إليه عزيمته ويرفع روحه المعنوية . واتفق الأخوان على تقسيم العمل بينهما وتقسيم الجيش إلى فرقتين ، فرقة بقيادة إسماعيل باشا تزحف إلى أعالى النيل الأزرق والأخرى بقيادة إبراهيم باشا لتخترق جزيرة سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض وتمد فتوحات مصر إلى أعالى النيل .

وبعد أن تمت كل ترتيبات الحملة أخذ كل أمير وجهته ولكن إبراهيم باشا مرض بالدوسنتاريا فاضطر إلى العودة إلى مصر بعد أن وصل بجيشه إلى (دنكا) فى وسط الجزيرة .

رأى ابراهيم باشا فى فتح السودان

* كان إبراهيم باشا يرمى من وراء فتح السودان زيادة على الأغراض السابقة إلى غرض آخر أبعد مدى وأكبر أثراً ، ذلك

(*) لصاحب العزة الأستاذ شفيق بك غربال .

هو البحر الأحمر والأقاليم المجاورة له ، فكان تصوره وإدراكه للمسائل السودانية ذا وجهتين . وجهة تطل على النيل والأخرى على البحر الأحمر . وتملكته هذه الفكرة وأصبحت واضحة فى ذهنه تمام الوضوح حتى إنه قال بعد فتح السودان « إن ميداننا ليس الأناضول وإنما بلاد العرب والبحر الأحمر والامتداد فى حوض النيل » .

حرب اليونان

لم يكد يستتب الأمر لمحمد على فى السودان وينصرف إلى توطيد دعائم الدولة المصرية العظيمة فى وادى النيل وبلاد العرب وإذا بالباب العالى يستنجد مرة أخرى ويطلب منه إعانة الأسطول العثمانى الذى عهد إليه فى قمع الفتن والاضطرابات التى نشبت فى جزر بحر اليونان .

فجهز محمد على أسطولا من ١٦ قطعة ، أقلع من الإسكندرية فى ١٠ يولية عام ١٨٢١ وكتب الله له التوفيق واحتل جزيرة رودس .

ثم شبت الثورة فى جزيرة قبرص وعجز الجيش التركى عن إخمادها فاستنجد السلطان مرة أخرى بمحمد على مع تعيينه والياً عالياً فوق ولايته على مصر . وعاد السلطان فى عام ١٨٢٢ واستنجد به مرة رابعة لقمع الثورة فى جزيرة كريت ولكى يثير حماسته ولاه عليها .

ووفق محمد على فى هذا العام إلى قمع الثورات و إخمادها فى كل من الجزر الثلاث رودس وقبرص وكريت .

وفى عام ١٨٢٢ أغار الفرس على بلاد الدولة العلية وزحفوا قاصدين الاستيلاء على بغداد وأرض الروم فاستعان السلطان بمحمد على لخامس مرة .

ثم عاد السلطان للمرة السادسة واستعان بمحمد على لقمع ثورة هائلة نشبت فى بلاد المورە (بلاد اليونان) وكان الثوار قد استولوا على كثير من المدن والمعاقل وهزموا القوات العثمانية المرابطة فى بلادهم .

ولكى يستثير السلطان حمية محمد على أصدر فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ فرماناً قضي بولايته على بلاد المورە أيضاً .

معدات الحملة

بذل محمد على همة كبرى فى تجهيز معدات الحملة على الموره فأعد جيشاً برياً من الجيش النظامى الجديد بقيادة ابنه إبراهيم باشا بطل الحجاز وتألف هذا الجيش فى بداية الحملة من ١٧٫٠٠٠ مقاتل من المشاة وأربعة بلوكات من المدفعية و ٧٠٠ من الفرسان كما أعد عمارة بحرية مصرية لنقل الحملة ومهماتها يحرسها الأسطول المصرى بقيادة الأمير إسماعيل .

وفى يناير سنة ١٨٢٦ أتبعها بنجدة مؤلفة من ١٠٫٠٠٠ مقاتل شفعها بنجدة ثالثة مؤلفة من ٩٢ سفينة منها ٥١ سفينة حربية .

الاسطول المصرى يقاتل على شواطىء الاناضول

أقلعت العمارة المصرية من ثغر الاسكندرية فى شهر يولية سنة ١٨٢٤ واتجهت إلى جزيرة رودس ، ومنها إلى خليج (ماجرى) على شاطىء الأناضول حيث أنزل إبراهيم باشا قواته

البرية وتابع هو سيره بأسطوله حتى التقى بالأسطول التركى بقيادة خسرو باشا فى ميناء بودروم (على شاطىء الأناضول) فى أواخر أغسطس سنة ١٨٢٤ .

وكان الثوار الإغريق بحارة مهرة يملكون أسطولا ضخما من السفن التجارية المسلحة تسليحاً قوياً ويقومون بضروب من القرصنة لم ير العالم مايماثلها فى الشدة والفظاعة .

هاجمت السفن اليونانية العمارتين المصرية والتركية بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين . وسرعان مالاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان أما إبراهيم باشا فقد صمد للسفن اليونانية ، واستطاع بجرأته وصادق بأسه أن يصد سيل الإغريق الجارف . ولما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قوياً لم يحسبوا له حساباً من قبل ارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة .

ورجع الأسطول المصرى جنوباً فاعترضته السفن اليونانية فى ميناء جزيرة (سادز) واشتبكت معه فى معركة شديدة أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين .

فاضطر إبراهيم باشا إلى العودة بأسطوله إلى بودروم .

وأدرك إبراهيم باشا من هذه الوقائع أن هزيمة اليونان لا تكون على ظهر البحر حيث لهم الغلبة فى السفن المسلحة المنبثة فى جميع أرجائه وأن خير وسيلة للتغلب عليهم هى القضاء عليهم براً فى شبه جزيرة الموره . وعلى ذلك انسحب إلى كريت حيث أخذ يتحين الوقت المناسب ليتمكن من إنزال جيشه فى بلاد الموره .

ولقد أبدت نتائج هذا القتال ومسلك خسرو باشا العجيب أمام شواطىء رودس خطأ فكرة القيادة المزدوجة . إذ أن محمد على باشا وابنه إبراهيم كانا من الأصل وقبل بداية إعداد الحملة يعارضان في فكرة تقسيم السلطة ، ولذلك كتب محمد على إلى الباب العالى فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٤ كتاباً جمع بين الأسف وشىء من الغبطة الشخصية فقال :

« يؤسفنى كل الأسف أن ماطلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم ،

وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد ، ذلك لأن اختلاف الرأى لابد وأن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة . »

ولقد كان هذا الإنذار المقنع كافياً لإجبار الباب العالى على تولية إبراهيم باشا قيادة الحملة المصرية التركية خوفاً من انسحابه من ميدان القتال .

ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هذه الوقائع البحرية على شجاعته التى امتاز بها فى حروب البر فقد صمد عدة شهور لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظم قدرتها على خوض غمار البحار ومهارتها فى مهاجمة السفن الحربية ، ولولا عزيمته ورباطة جأشه فى مواجهته للمخاطر لتشتت العمارة المصرية وتبددت أمام هجمات السفن اليونانية .

كل هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة إبراهيم باشا وتطالعنا بما تنطوى عليه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرئاسة والقيادة .

سليمان باشا الفرنساوى ساعد إبراهيم الأعن

ابراهيم يغزو بلاد الغرب

لقد كان الشرق نهباً لغزوات الغرب طوال هذه الأعوام وكأنَّ العناية الإلهية قد أرادت أن يهبَّ الشرق من غفوته ويرد الكيل كيلين لدول الغرب التى انتهكت حرمات بلاده فأرسلت لها إبراهيم يغزو بلاد المورە ويدخل الرعب والخوف فى بلاد القارة الأوروبية .

قلنا أن إبراهيم قد عاد بعمارته البحرية إلى كريت وأنه أخذ يتحيَّن فرصة خلو البحر من السفن اليونانية لينزل بجيوشه إلى شواطىء المورە وقد تهيأت له هذه الفرصة إذ وقع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية وتنازع الرؤساء مع زعماء الحكومة الثورية — وكان البحارة اليونانيون فى تلك الأيام مهرة بواسل كما كان سكان الجزائر الذين انضموا إلى الجيش اليونانى رجالا أنجاداً أولى بأس وعزم ، ولكن ماذا تجدى الجرأة والبسالة والإقدام وسعة الحيلة إذا ماقعد بها الشقاق والغدر وراء صفوف

القتال ، وكان أمامها جنود لا يقلون عن أصحابها قوة وعزم وسعة حيلة وصدق وطنية يقودهم رجل كإبراهيم .

فلما علم إبراهيم بهذه الأنباء انتهز الفرص وأقلع بعمارته إلى ميناء (مودون) جنوبى المورە وأنزل جنوده إلى البر فى فبراير سنة ١٨٢٥ .

وكان هذا الموقع المنيع هو وموقع (كورون) قد بقيا بيد الأتراك وقد ألفى إبراهيم باشا هذه القوات فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحراً و براً .

حصار نفارين

أقام إبراهيم باشا فى (مودون) قليلا يدبر شئون جنده و يرسم خطة الزحف على داخل البلاد ثم سار منها مع نخبة من جيشه قاصداً (كورون) لنجدتها . فغلب اليونانيين وفك الحصار عنها وأدخل إلى الجنود المحصورة المؤن والمدد .

وأرسل إبراهيم إحدى فرق جيشه إلى نافارين لمحاصرتها

وكان الثوار قد استولوا عليها وانتفعوا بها وهي من أهم مواقع الموره . فحاصرتها براً وبحراً واشتدت مقاومة اليونانيين وتكبد المصريون الأهوال فى حصار المدينة فقام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) ليشدد الحصار على نافارين فتصدى له فى الطريق جيش يوناني قوامه ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل أتوا لنجدة حامية نافارين فهزمهم إبراهيم باشا وأسر قائدهم وشدد الحصار على المدينة براً وبحراً وكادت المدينة تسقط فى يده لولا أن هرع آلاف المتطوعين من اليونانيين لنصرة إخوانهم فى نافارين فتجمع منهم جيش زاد على التسعة آلاف مقاتل .

فترك إبراهيم باشا جزءاً من جيشه لمحاصرة المدينة بعد أن عززه بكثير من المدافع وسار إبراهيم بجيش قوامه ثلاثة آلاف من المشاة وأربعمائة من الفرسان يقودهم بنفسه والتقى باليونانيين على مقربة من البلد فهجم هؤلاء بجيش عظيم ولكن من غير نظام أما إبراهيم باشا فقد أمر جنوده بالثبات حتى يصدر إليهم

الأمر بفتح النيران ، وما إن أصبح الثوار على مسافة مائة متر من صفوف الجيش المصرى أصدر الأمر بإطلاق النار دفعة واحدة فحصد الرصاص الصفوف المتقدمة حصداً وألقى الرعب فى قلوب المهاجمين واختلفت صفوفهم وقتل معظمهم وتشتت الباقون فى الجبال وفى أنحاء اليونان .

وكانت هذه الواقعة هزيمة كبرى أصابت اليونانيين وزلزلت آمالهم كما كانت نصراً مبينا للجيش المصرى الحديث كما رفعت شأنه إذ أنها أول معركة خاض غمارها فى القارة الأروبية بعد حروبه السابقة فى آسيا وأفريقيا .

وقد شهد الجميع للجيش المصرى بالنظام والشجاعة والثبات وكان مسلك الجنود فيها حيال أعدائهم مسلكا إنسانياً رائعاً فلم يرتكبوا شيئاً من الفظائع وكانوا يعاملون الأسرى معاملة طيبة كما كان أطباء الجيش المصرى يعنون بجرحى أعدائهم ، كل هذا تنفيذاً لأوامر إبراهيم .

عاد إبراهيم باشا ليشدد الحصار على نافارين ولكن هذه

المدينة لوقوعها على البحر كان يأتيها المدد والمؤن ـ فرأى إبراهيم أن لا سبيل إلى منع الإمدادات إليها إلا إذا استولى على جزيرة (أسفاخيزا) التى تحجب المرفأ .

وكان اليونانيون يعرفون مالهذه الجزيرة من أهمية فحصنوها ووضعوا فيها عدة بطاريات من المدافع فكان الاستيلاء عليها من أصعب الأمور .

وعهد إبراهيم باشا بهذه المهمة الخطيرة إلى سليمان (باشا) الفرنساوى فاختار الأخير نخبة من خيرة رجال الجيش المصرى الحديث الذين ألفوا النظام الحديث وسار بهم من (مودون) بحراً قاصداً نافارين ولما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوات جديدة .

ولما أقبلت السفن المصرية بدأ التراشق بالمدافع وفتحت الجزيرة النيران عليها بشدة ولكن هذه النيران رغم شدتها لم تمنع المصريين ذوى الشجاعة والجلد من الاستمرار فى التقدم حتى

بلغوا الشاطئ، واستولوا على الجزيرة عنوة بعد أن دافع عنها اليونانيون دفاعاً مجيداً . ولكن المصريين غلبوهم بحسن نظامهم وشجاعتهم ورفعوا العلم المصرى على استحكاماتها .

وأخذ إبراهيم باشا يشدد الحصار على نافارين ويذيقها الويلات حتى اضطرت إلى التسليم فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ .

فتح كلاماتا

اعتصم الثوار بعد سقوط نافارين بميناء كلاماتا فسار إليهم إبراهيم ودارت بينه وبينهم معارك حامية بسبب ماعرف به الجبليون من شجاعة وبأس ولكن فاتح نافارين لم يكن بالذى يمكن الصمود فى وجهه ووجه جيشه الذى ثمل بنشوة النصر ، فانتهت هذه المعركة بهزيمة اليونان واحتلال مدينتهم .

فتح تربيوليتزا

كانت تربيو الواقعة فى وسط شبه جزيرة الموره معقلاً منيعاً

للثوار كما كانت عاصمة لها وهى تتميز بمناعة موقعها وصعوبة الوصول إليها .

فزحف إبراهيم باشا عليها واجتاز مضايق الجبال الوعرة وهزم قوات الثوار التى تحصنت فى المضايق لتسد طريق التقدم إلى مدينتهم فاضطروا إلى إخلاء المدينة والانسحاب منها بعد أن أضرموا فيها النار .

ثم قام بعد ذلك بعدة عمليات للتطهير انتهت بأن أصبحت شبه جزيرة الموره بأسرها فى قبضة الجيش المصري عدا مدينة (تويلى) عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يستعد لحصارها .

بطل ميسولونجى

وبينما كان إبراهيم باشا يتأهب لحصار (نويلى) أرسل إليه رشيد باشا قائد الجيوش التركية يطلب منه النجدة والمدد ليعاونه فى حصار ميسولونجى فعدل مؤقتاً عن حصار (نويلى) وولى وجهه شطر ميسولونجى .

تقع هذه المدينة على خليج بتراس ويقوم بالدفاع عنها قوات هائلة من المتطوعين اليونانيين أشداء البأس المتحمسين . وتتصل هذه المدينة بالبحر ويتولى الدفاع عنها من هذه الناحية السفن والحراقات اليونانية بقيادة الأميرال (ميوليس) .

وكان رشيد باشا قائد الجيش التركى يحاصر هذه المدينة منذ مدة طويلة دون أن ينال فيها منالا لمناعة موقعها واتصالها بالبحر ووقوف المراكب اليونانية خلفها تمدها بالمؤن والذخائر وتمنع اقتراب الأسطول التركى منها .

ولما استعصت هذه المدينة على رشيد باشا بعد أن هاجمها مرتين وفشل فى كلتيهما أرسل إليه السلطان رسولا يحمل كتاباً لا يحتوى على أكثر من كلمتين اثنتين وهما (إما ميسولونجى وإما رأسك) وإزاء هذا لم يجد بداً من متابعة الهجوم مرة ثالثة ولكنه فشل فشلا ذريعاً فأرسل إلى إبراهيم باشا يستنجد بالجيش المصرى . فأرسل إبراهيم لوالده ينبئه بذلك ويطلب منه إمداده بالمؤن فأرسل له مدداً كبيراً من الجنود والعتاد وما إن

وصـل هـذا المدد إلى إبراهيم باشا حتى قام من فوره ومعه عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان إلى بتراس ثم عبر الخليج وسار بحراً قاصداً ميسولونجى وعهد بالقيادة من بعده على شبه جزيرة الموره إلى الـكولونيل « سيف » (سليمان باشا الفرنساوى) .

ووصل إبراهيم باشا إلى ميسولونجى واشترك مع رشيد باشا فى الحصار وقد اتبع نفس الخطة فأخفقت ورجع عنها منهزماً ذلك أن إبراهيم باشا بمجرد وصوله طلب من أهل ميسولونجى التسليم فرفضوا فأخذ يصب عليهم نيران المدافع وظل يواصل إطلاقها ليل نهار فـكانت مبانى المدينة تتساقط بعضها تلو بعض وهجرها النساء والأطفال ولـكن الرجال ظلوا يدافعون من مواقعهم على الأسـوار وهم يصيحون (لا يزال عنـدنا الخبز والخرطوش وسنتمكن بهما من مقاومة الباشا المصرى حتى النهاية) .

وفى مساء ٨ فبراير انقض خمسة آلاف عربى مصرى على أسوار المدينة فتصدى لهم اليونانيون بسيوفهم وصدوا المهاجمين

— ثم تظاهروا بالانسحاب فخدع المصريون وتابعوهم حتى وصلوا إلى أرض كان اليونانيون قد لغموها من قبل فانفجرت الألغام وخسر إبراهيم كثيراً من قواته وقدرت الخسارة بخمسمائة قتيل . وحدثت معركة أخرى بعدها خسر فيها المصريون ثلاثمائة قتيل آخرين فطرح إبراهيم باشا جانبا خطط رشيد باشا ورسم لنفسه الخطة التى نجحت فى حصار نافارين بأن شدد الحصار عليها براً وبحراً وكانت العمارة البحرية المصرية بقيادة الأميرال محرم بك تساعد فى هذه الخطة فاحتلت الجزر الواقعة على مدخل الميناء وحصنتها فمنعت بذلك ورود المؤن بحراً إلى ميسولونجى . وهذه الخطة هى طبق الأصل من خطته السابقة التى اتبعها فى نافارين .

وأراد إبراهيم باشا بادىء الأمر أن يتفادى أهوال القتال وسفك الدماء فأبى أهلها أن يسلموا وأجمعوا أمرهم على المقاومة إلى النهاية مهما كلفهم ذلك من الضحايا وأرسلوا إلى القائد اليونانى (كرايسكاكى) وكان على مقربة من المدينة ينبئونه

بأنهم عزموا على الخروج جميعاً فى ليلة ١٢ إبريل سنة ١٨٢٦ وطلبوا إليه أن يهاجم الجيش المصرى فى ميعاد حددوه . فلما خرجوا فى الوقت المحدد فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنيران حامية حصدت صفوفهم فارتدوا إلى المدينة بغير نظام وتبعهم المصريون حتى دخلوا المدينة وقضوا على الكثيرين منهم وبقى فى المدينة مايقرب من ألفين من الشيوخ والأطفال والنساء آثروا الموت على التسليم فاجتمعوا فى مستودع للذخائر وأشعل فيه رئيسهم النار فانفجر على من فيه وقتلوا جميعاً .

وقد خسر المصريون فى الهجوم الأخير فقط مايربو على الألفين وخسر الثوار ستة آلاف .

وفى اليوم الثالث والعشرين من إبريل عام ١٨٢٦ كانت مدينة ميسولونجى فى يد البطل الفاتح إبراهيم .

ارتاعت أوروبا لما رأت من سرعة هذا الفتح فعقدت نيتها على ألا يستكين الصليب للهلال وصممت على أن تقوم بعمل

برغم رجال السياسة على إنقاذ ذلك الشعب الباسل من الانقراض ، فأخذ الدعاة يدخلون فى روع الناس أن القائد المصري هو الشيطان بعينه ، هو « أتيلا » المستبيح دماء النساء والأطفال . فثارت ثورة الغضب والكراهية فى نفوس القوم وأخذوا يتهمون إبراهيم بخرق حرمة جميع قوانين الحرب المتعدينة .

وهذه افتراءات ولا شك قصدت بها الشعوب الأوروبية التأثير على حكوماتها فى مسألة اليونان والتأثير عليها بمختلف الدعايات التى قام بها فريق منهم .

واستجابت الحكومات لنداء شعوبها ووافقتها على هذه التهم لتخلق لأنفسها مبررات للتدخل فى هذه المسألة ، حرصاً على مصالحها السياسية ، لا تلبية لنداء الإنسانية كما تدعى .

ومما يؤيد كذب هذه الادعاءات الباطلة شهادة رجل فرنسى يدعى لوفرنى ، كان فى بلاد المورە أثناء الوقائع التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٥ ، والتى نشرها فى عام ١٨٢٦ بأمانة وصدق فقال :

(تقابلت مع سليمان « بقصد الكولونيل سيف » ودار بيني وبينه حديث طويل ، أخبرني في سياقه أن محمد علي حتم على ابنه أن يوسم في نزوله في بلاد المورة بميسم الرأفة والرحمة لكي ينطبع في نفوس رعاياه الجدد أنه لم يأت ليحاربهم بل ليهدىء ثورتهم) .

ويقول في خلال هذا الحديث الطويل أنه رأى بعيني رأسه الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم وهو يدعوهم إلى الانصراف قائلا لهم :

« أبلغوا الناس جميعاً أنني أبوكم وأنني لن أقسو إلا على العصاة الثائرين » .

ويقول بعض المؤرخين إن الثوار اليونانيين هم الذين ابتدأوا بأعمال القسوة والوحشية فكانوا يسفكون دماء الأسرى . فإن كان إبراهيم باشا قد قابل هذه الأعمال بالمثل فلا شك أن البادى أظلم وعليه تقع تبعة الحوادث .

ومن كل هذا يتبين أن أوروبا كانت تتلمس الحجج لتبرر بها هجومها على إبراهيم .

ويقول الرجل نفسه أنه لولا المال الذى جاء به بايرون من أوروبا وما أحدثه هذا المال من أثر سيء فى قوة اليونانيين المعنوية لنادى السكان بإبراهيم والياً على بلاد المورة ولأعلن هو هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذى استسلموا له .

وبيرون هذا شاعر انجليزى استهوته ثورة اليونان فجعل يدافع عنها ويحث الشعوب والحكومات على مؤازرتها ويجمع الأموال الطائلة ويرسلها إلى الثوار ويحمل على الجيش المصرى حملة شعواء لا هوادة فيها ولا رحمة ولا تستند إلى دليل قاطع ، وبلغ من انتصاره لهم أن تطوع فى صفوفهم ومات فى ميسولونجى عام ١٨٢٤ . وشايعه فى ذلك جماعة من أقطاب الشعراء والأدباء مثل فيكتور هوجو وشاتوبريان فأخذوا يستصرخون الرأى العام الأوروبى ويضربون على الوتر الدينى الحساس لتوجيه ميول الأمم والحكومات فى أوروبا إلى نجدة اليونانيين وسايرهم فى هذه

الافتراءات كثير من رجال السياسة حتى قيل إن جورج كانينج الذى كان وزيراً للخارجية البريطانية وقتئذ كتب إلى سفيره فى الإستانة يقول :

« لقد هيأت لى سبباً جديداً للتدخل أجل شأناً من أى سبب آخر كنا نستطيع أن نتعلق به للوصول إلى بغيتنا، ذلك هو الخطة التى تسير عليها الحرب فى الموره فى الوقت الحاضر ، تلك الخطة البربرية التى ترمى إلى بربرة الموره . حقاً لقد طالما رأينا الطرفين يسفكان دماء الأسرى ولكن المظالم الأخرى التى اتبعها إبراهيم القائد المصرى جديدة فى نوعها و يقينى أنه يمكن اتخاذها أساساً جديداً للقول إن لم أقل للعمل . . . . . » .

ويبدو من هذه الرسالة مدى تحامل الغرب على إبراهيم واتهامه بسفك دماء الأسرى ، ولكنها تبين أن اليونانيين سلكوا نفس هذا المسلك ولربما كانوا هم البادئين بالعدوان ، ولكن رغم كل هذه العوامل فهى لا تمنعهم عن اتهام إبراهيم وضرورة تدخلهم فى جانب اليونانيين ، كما أن هذه الرسالة أيضاً

تبين بأجلى وضوح أن الغرب كان قد صمم على التدخل وأن هذه الاتهامات لم تكن سوى مبررات لتبرير تدخلهم . والواقع أن هذه الافتراءات لم يكن معظمها سوى دعايات محضة وأن الثوار اليونانيين لم يكونوا خيراً من رجال إبراهيم ، فقد اضطلعوا بكثير من أعمال الغدر والتقتيل حتى اضطر جورج كانتج نفسه إلى الاعتراف بأنه على الرغم من حبه الخير لليونانيين لا يستطيع أن ينكر أنهم جميعاً عدا القليل منهم فئة ضالة وصلت إلى أسفل درك .

ورأت الدولة الأوروبية أن إبراهيم باشا لا يلبث حتى يستولى على الموره بأسرها ، فسارعت روسيا و إنجلترا إلى الاتفاق على حل فى مسألة اليونان وهى أن تتعهد بأن تضمن لبلاد اليونان نوعاً من الاستقلال المقيد .

و بينما كانت هذه المفاوضات قائمة بين الدول الأوروبية التى اشتد بينها النزاع بسبب هذا الموضوع واختلاف وجهة نظر

كل حكومة عن الأخرى، استولى إبراهيم على أثينا بعد استيلائه على ميسولونجى وضرب الحصار على الأكروبوليس . وقد دافع اليونانيون عنها دفاع الأبطال ولكن الدائرة دارت عليهم .

وعجل هذا التصرف حسم الخلاف بين الدول الأوروبية فوقعت معاهدة لندن فى السادس من شهر يولية سنة ١٨٢٧ وفيها رأت الدول الثلاث ، روسيا و إنجلترا وفرنسا ، التدخل فوراً فى المسألة اليونانية على أساس استقلال اليونان داخلياً مع استمرار تبعتها لسلطان تركيا . وطلبت من الفريقين وقف القتال وأعلنت الدول قراراتها إلى إبراهيم باشا فقال :

« ليس بوسعى الجزم بشىء مطلقاً ما لم ترد إلىَّ رسالة من سمو والى مصر وفرمان من جلالة السلطان فهما رئيساى اللذان بأمرهما أأتمر و إننى منذ اليوم باعث إليهما رسولاً لإخبارهما بما حدث . وما علىَّ إلا انتظار العمل بأمرهما ومهما يكن الخطر الذى أنا مهدد به فإنى لن أحيد عن خطتى قيد شعرة » .

أما السلطان فقد رفض وساطة الدول الأجنبية فى شئون ولاية من ولاياته شقت عصا الطاعة على أوامره وكان جوابه على رسالة إبراهيم دعوته إلى استئناف القتال بأقصى شدة . واتصل بمحمد على قرار الباب العالى فى ذلك الشأن فقال لضابط فرنسى من ضباط بحريته :

« إن ولدى إبراهيم سيدأب على القتال بشدة حتى النهاية إننى عارف بطبعه » .

مقدمات معركة نافارين

لم تكن معاهدة لندن التى ذكرتها مجرد وساطة شريفة بين الدول الثلاث وتركيا لحل الخلاف القائم بينها وبين اليونانيين ، بل كانت وساطة مغرضة أريد بها طرد الأتراك من أوروبا ، ولكنهم لم يؤتوا من الشجاعة ما يكفى لخرق القانون الدولى أو الجهر برغبتهم من غير مواراة أو تضليل . ففى الوقت الذى كانوا يظهرون فيه الود والصداقة لتركيا كانوا يعملون

على تحقيق مطالب اليونانيين . ولذلك فقد أضافوا ملحقاً سرياً لمعاهدة لندن هذه وقعوه فيما بينهم . ويحتوى هذا الملحق الفقرات الآتية :

« فى الوقت الذى يعرض فيه ملوك فرنسا وانجلترا وروسيا وساطتهم لدى الباب العالى لفض النزاع القائم بين تركيا واليونان فإنهم يتوقعون أن يرفض الباب العالى هذه المقترحات لذلك فإنهم يتفقون على أنه فى حالة الرفض و بعد انقضاء شهر من الزمان يتخذون الوسائل التى تمكنهم من فرض الهدنة التى يرغبون فيها » .

« وتشمل هذه الوسائل أولا تمكين العلاقات الودية بينهم و بين اليونانيين وثانيا اتحاد أساطين الدول المتعاقدة فى العمل على منع وصول إمدادات من الرجال أو الأسلحة أو السفن أو الذخائر إلى بلاد اليونان أو إلى جزائر الأرخبيل » .

وخولت الدول الثلاث السلطة لسفرائها فى تركيا لتنفيذ هذه

المعاهدة كما وضعت تحت إمرتهم جزءاً من أساطيل روسيا وفرنسا وإنجلترا وجميعها تحت إمرة الأميرال كدرنجتن البريطانى .

ويذهب المؤرخون فى تعليل أسباب معركة نافارين ودوافعها إلى أسباب شتى لتبرير هذا الموقف العدائى الذى وقفته هذه الدول من مصر الصديقة ، ولكن مما لاشك فيه أن التعليمات التى كانت تصل إلى أميرال البحر من حكومته عن طريق سفيرها فى تركيا كانت متضاربة مبهمة جعلته فى حيرة من طريقة تنفيذها وكان هو نفسه فضلا عن ذلك رجلا عصبياً حاد المزاج وصفه الانجليز أنفسهم بالتهور وحدة الطبع يمتاز بالجرأة والبسالة أكثر مما يمتاز بالحصافة والحذر وهي الصفات التى كانت تتطلبها هذه المهمة الدقيقة .

وكانت هذه الصفات سبباً فى وقوع الخلاف بينه وبين الأسطول الفرنسى مما دعا محمد على باشا فى مصر إلى الاعتقاد بأن هذه الدول لن تستطيع الاتفاق فيما بينها على تنفيذ خطة مشتركة ضد ابنه إبراهيم ، هذا فضلا عن أن هذه الحكومات

نفسها وخاصة انجلترا لم تستقر على أمر معلوم إزاء هذه المشكلة ، كما كانت فرنسا فى الوقت نفسه صديقة حميمة لمحمد علي لايتوقع منهما الغدر والعداء .

ولم يكن محمد على باشا بالرجل الذى تنقصه الحكمة و بعد النظر حتى يورط أسطوله وهو أشد ما يكون به شغفاً فى حرب مع ثلاث دول كبرى يعرف مقدار أساطيلها وتفوقها على أسطوله الحديث علاوة على تذبذب سياسة الدول الغربية وغموضها .

وأخذ محمد على يستوضح سياسة انجلترا عله يهتدى إلى الطريق الذى يمكنه اتباعه بعد أن تورط فى هذه الحرب الطائلة تنفيذاً لرغبة الباب العالى لكن انجلترا ماطلت فى إجابة طلبه لعلة فى نفسها .

ورأى محمد على أسطوله فتاه به عجباً وكتب إلى إبراهيم فى ٢٤ يولية عام ١٨٢٧ يقول :

« والآن ياولدى قد صار لنا بعون الله أسطول فخم لم يكن

لدولة إسلامية من قبل . وهو واف بمطالبنا من حيث سرعته وسلاحه ونظامه فليس هو الأسطول الذى عرفته من قبل وإنما هو أسطول عظيم حديث فى كل شىء لم يمتلكه حاكم مسلم من قبل الآن وإن شاء الله ستراه بنفسك فى القريب العاجل » .

ولم يفت محمد على فى هذه المناسبة أن يوضح للدول العظمى تمام الوضوح أنه لا يقصد من وراء أسطوله أى تهديد أو تحد لدول الغرب ولكن انجلترا لم تكن لتقبل بحال من الأحوال أن يكون لأمة غيرها أسطول فى شرق البحر الأبيض المتوسط ينازعها السيطرة على البحار . فصممت على تحطيم هذا الأسطول الجديد وهذا الجيش الفتى مهما كلفها من ثمن .

ومهما حاول رجال السياسة البريطانية تبرير موقفهم أو التملص من تبعات سياستهم فستظل مصر تذكر لهم عداوتهم لها وتدميرهم ثمرة مجهوداتها بالقضاء على أسطولهم الفتى فى معركة نافارين .

جندى من جنود المدفعية فى جيش ابراهيم

معركة ناڤارين

كان من نتيجة تذبذب السياسة الأوروبية وعدم استقرارها وغموض موقفها إزاء مصر فى مشكلة اليونان أن استقر رأى محمد علي على إرسال حملة أخرى إلى ابنه إبراهيم تعزيزاً لقواته وكان يؤمن بأن ماتفعله انجلترا وفرنسا وروسيا من مناورات لا تعدو أن تكون من باب التضليل وأن عملهم لا يخرج عن كتابة المذكرات وإرسال الاحتجاجات وأن ليس فى نيتهم محاربته لأنهم لا يستطيعون الاتفاق على عمل مشترك .

وكان يرى أنه إن أذعن لمطالب الانجليز وحلفائهم وهو على بينة من أمرهم فإنه سيكون موضع سخرية جميع المسلمين ولذا فالواجب يحتم عليه إرسال الحملة التى كان يقوم بتجهيزها .

وقرن محمد على باشا القول بالعمل فأمر بتسيير الحملة فأقلعت من الإسكندرية فى أوائل أغسطس عام ١٨٢٧ .

وكانت مع ماانضم إليها من السفائن التركية مؤلفة من

بارجتين حربيتين بهما ٨٤ مدفعاً و ١٢ فرقاطة كبيرة كان فى بعضها ٦٥ مدفعاً ، و٣٧ سفينة من طرز الكورفيت والجو بليت والحراقات و ٤١ نقالة ، هذا عدا ٩٢ سفينة تحمل ٤٦٠٠ جندى من المشاة . وسارت هذه التجريدة الضخمة فى طريقها حتى وصلت إلى ميناء نافارين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع أسطول تركى آخر فانتظما مع القوات الأخرى التى تولى إبراهيم باشا قيادتها العامة فى البحر والبر .

ولما أخفقت خطة الحلفاء فى منع وصول الحملة المصرية إلى إلى نافارين سار الأميرال كادرنجتون بأسطوله إلى ثغر نافارين فوصلها يوم ١٢ سبتمبر وذلك ليبلغ إبراهيم باشا بأنه سيمنعه بالقوة من مهاجمة أى جزء من بلاد اليونان . ثم أعقبه الأسطول الفرنسى فجاء يوم ٢١ منه ، أما الأسطول الروسى فلم يظهر إلا فى أوائل اكتوبر . وقد أرسل الأميرال كادرنجتون إلى إبراهيم باشا مذكرة فى ١٩ سبتمبر يبلغه فيها مطالب الحلفاء طبقاً لمعاهدة لوندرة وهى التى تنص على وقف القتال براً وبحراً ، ومعنى هذا

البلاغ فى نظر إبراهيم باشا منعه من إرسال الحملة البحرية إلى جزيرة هدرا أو تحرك جنود البر داخل شبه جزيرة الموره .

وتقابل قائد الأسطول الفرنسى مع إبراهيم باشا وذلك ليكرر نفس هذه المطالب ، ثم عاد وقابله مرة أخرى مع الأميرال كادرنجتون وكان المقصد من كل هذه الاجتماعات والبلاغات تهديد إبراهيم باشا لكى يعود بأسطوله إلى الإسكندرية. ولكنه قابل هذا التهديد بالثبات ورباطة الجأش وكان رده عليهم أنه سيرسل إلى والده بالإسكندرية وإلى الباب العالى بالأستانة يطلب تعليماتهما عن الموقف الذى يتخذه وإلى أن يتلقى هذه التعليمات فإنه يتعهد ببقاء الأسطول فى نافارين ولكنه بين لهم أنه مُصرّ على أن من واجب الحلفاء إذا أرادوا منه أن يوقف الأعمال العدائية أن يلزموا بذلك اليونانيين أيضا وأبى أن تغل يده ثم تطلق لأعدائه حرية العمل .

ولما كان لهذا الاجتماع أهمية عظمى فى التاريخ إذ ترتبت عليه نتائج هامة ، فإننا سنورد هنا بالتفصيل نص المحضر أو

المذكرة التى حررها الضباط المرافقون للأميرال كادرنجتون يوم الاجتماع .

* «فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ سبتمبر عام ١٨٢٧ نزل السير ادوارد إلى البر و برفقته بعض ضباطه واجتمع بأمير البحر الفرنسى ونفر من ضباطه قرب الساحل ، ثم ساروا جميعاً إلى خيمة إبراهيم باشا . وجلس جميع الضباط الأتراك والمصريين فى ناحية وانتحى ضباط الأسطولين الفرنسى والبريطانى ناحية أخرى .

و بعد التعارف بدأ أميرا البحر حديثهما بأن قالا لإبراهيم إنه على أثر المعاهدة المعقودة بين انجلترا وفرنسا والروسيا أصبح واجباً مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان سواء كانت رجالا أم عتاداً وسواء كانت من مصر أم من تركيا . فأجاب إبراهيم باشا بأن

* ذكريات من حياة أمير البحر السير ادوارد كادرنجتن للسيدة بوشيير .

أميرى البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما وأن أوامره تحتم عليه أن يهاجم هدرا ، وأن عليه أن ينفذ هذه الأوامر ، كما وأن واجباته مقصورة على العمل ولا تشمل المفاوضة ، وأنه يحيلهما إلى سيده الأعلى ليبحثا معه الأمور السياسية » .

فأجاب أميرا البحر بأنهما يدركان ما يشعر به كل رجل شجاع مثله فى هذه الظروف ، ولكنهما يأسفان بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحدياً تحذيراتهما الودية فانهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر . ثم قال القائدان : إن العلاقات الحالية بين الحلفاء وتركيا علاقات ود وصداقة ولذا فهما يأسفان كل الأسف إذا وقع بينهما حادث يمكن أن يكدر صفو هذه العلاقات الودية . ولذلك فإن الحكومات الثلاث ترغب رغبة صادقة فى تجنب كل ما قد يؤدى إلى قطع هذه العلاقات .

فأجاب إبراهيم باشا بأنه يقرهما على ما فى قولهما من خطر

ولذلك فهو يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونه لحملة الاسكندرية حتى يتلقى رداً من الأستانة والاسكندرية على يد رسول سيبعث به إلى كلتا المدينتين على الفور وستبقى هذه الحملة خلال هذه المدة فى مياه نوارين .

فأجابه القائدان بأنهما يرضيان بهذا الوعد منه وأنهما يثقان بشرفه كما يودان أن يثق هو بشرفهما ، وعند ذلك وضع إبراهيم يده على صدره وقال إنه وعد مقدس وأضاف أنه مع هذا الوعد لا يسعه إلا أن يقرر أنه ليس من العدل أن يفرضا عليه هذا الفرض و يسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية .

وكان إبراهيم باشا مخلصاً فى تنفيذ شروط الهدنة إلا أنه لسوء الحظ وقع سوء فهم لشروطها فبينما إبراهيم باشا فهم أنه لا يحق له استخدام قوات حملة الاسكندرية أى القوة التى وصلته أخيراً منها كان كدرنجتن يقصد جميع قوات الحملة المصرية والتركية فى بلاد اليونان

والنص الرسمى للتبليغ منصب على القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الاسكندرية فليس هناك والحالة هذه أى مجال للالتباس ولكن كادرنجتون تعلل بهذه الحجج ومنع إبراهيم باشا من إرسال جزء من أسطوله الراسى فى ميناء نافارين لتعزيز القوات المصرية فى بتراس والتى كان يهاجمها الثوار فى ذلك الوقت وتعقب العمارة المصرية التى أرسلها إبراهيم باشا ولحق بها تجاه رأس (باياس) شمالى المورة وتهددها بالضرب إذا لم ترجع عن سيرها فاضطرت أن تعود أدراجها إلى نافارين .

ورأى محمد على بعين حكمته أن محاربة الحلفاء أمر لا تحمد عاقبته فأوصى ابنه إبراهيم بالتزام خطة السلم وتجنب الاصطدام مع الدول أو التحرش بهم .

ولم يكن الاميرال كادرنجتن ممن يصغون لحكم المنطق ويبدو أنه كانت لديه خطة مدبرة ينفذها فأرسل هو وقواد الأساطيل الأخرى مذكرة يتهمون فيها إبراهيم باشا بنقض شروط الهدنة التى وعد بشرفه أن يحافظ عليها .

ولم يقتنع قواد الحلفاء أنفسهم بخطة الدفاع بل بيتوا الشر للأسطول المصرى والتركى واتفقوا فيما بينهم على تدميره مهما كان مسلك إبراهيم باشا .

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه عصر محمد على إن هذه المؤامرة قد دبرتها السياسة الانجليزية وأوعزت بها إلى الحلفاء وغايتها منها أن تقضى على العمارة المصرية الفتية التى أنشأها محمد على باشا فلا تعود مصر تنافسها السيادة فى البحر الأبيض المتوسط .

ونتيجة لهذا التدبير ، أو لسوء التفسير لنص شروط الهدنة وقعت معركة نافارين .

كانت سفن الأسطولين العثماني والمصرى ملقيـة مراسيها حول الميناء على خط مقوس يشبه الهلال تعززه بطاريات الساحل فلما كان يوم ٢٠ أكتوبر تقـدمت سفن الحلفاء على خطين متوازيين ، وكان الصف الأيمن بالنسبة لاتجاه سير السفن مؤلفاً من سفن الأسطولين الانجليزى والفرنسي والصف الأيسر الموازى له من سفن الأسطول الروسى .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر اجتازت سفن الأسطول الانجليزى الرمال والصخور التى بمدخل الميناء ووقفت بسكون فى اتجاه موازللسفن العثمانية. وفى الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة كانت سفن الحلفاء جميعها راسية فى مواجهة المراكب المصرية والتركية ولم يعترضها فى سيرها أحد بل تركها العثمانيون والمصريون تقوم بمناوراتها بسكون .

وحدث أن زورقا بريطانيا دنا من حراقة عثمانيـة ليأمرها بالابتعاد فاطلق عليه البحارة الأتراك رصاص بنادقهم فأجابت عليهم بعض قطع الأسطول الانجليزى بإطلاق الرصاص وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من إحدى مدافعها على سفينة القائد الفرنسى فرد عليها بالمثل ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه السفن جميعها ودامت هذه المعركة الطاحنة أربع ساعات كاملة .

وقد دمر الجزء الأكبر من الأسطول المصرى فى هذه المعركة وأصابه التلف إما من النار أو الغرق أو الجنوح إلى الشاطىء

و بلغت خسائر المصريين والأتراك فى الأرواح ماينوف على الستة آلاف قتيل .

وقد حارب هذا الأسطول ببسالة رغم تفوق أساطيل العدو ولم تقع سفينة واحدة من هذه السفن على اختلاف أنواعها فى يد الحلفاء فان السفن التى لم تغرق بتأثير مدافع العدو أحرقها بحارتها بأيديهم أو نسفوها نسفا .

وكان إبراهيم باشا أثناء هذه المعركة يحارب فى داخلية بلاد الموره فلما سمع بخبر هذه الكارثة عاد على الفور وشرع فى العمل بهمة لاتعرف الكلل لانقاذ ما يستطيع إنقاذه من سفن الأسطول وترميمه فى الأحواض قدر الإمكان حتى تمكن فى نهاية شهر ديسمبر من نفس السنة من تجهيز حملة بحرية تكفى لنقل خمسة آلاف من أسرى الثوار أقلعت بهم إلى مصر .

وفى أواخر فبراير سنة ١٨٢٨ حشد إبراهيم قواته في الطرف الجنوبى الذى تحيط به مدائن كورون ومودون ونافارين وقسمها إلى معسكرات وشيد لها الحصون فوق الآكام والروابى وكفل

لهذه الحصون سهولة خطوط المواصلات .

وأصبح إبراهيم بذلك محصوراً بين الثوار من ناحية بلاد الموره والحلفاء من ناحية البحر ولكن هذه الظروف القاسية لم تزعزع من ثباته وثقته بنفسه واقتدى الجيش بفضائله العالية وصفاته المحمودة وظلوا متمسكين بطاعته .

ورأى محمد على أن لا مصلحة لمصر فى الاستمرار فى القتال أو التقيد بسياسة تركيا فاتفق مع الحلفاء رأساً فى أغسطس ١٨٢٨ على إخلاء الموره وأصدر تعلياته بذلك إلى إبراهيم باشا .

وكانت فرنسا قد أعدت حملة عسكرية لاستخلاص شبه جزيرة الموره من أيدى المصريين فاتفق القائدان المصرى والفرنسى على أن يكون البدء بالجلاء عن المواقع المحصنة يوم ٩ سبتمبر و بدىء فعلا فى الجلاء فى التاريخ المحدد .

وأقام القائد الفرنسى عرضاً عسكرياً كبيراً إكراماً لإبراهيم باشا الذى أعرب عن ارتياحه من هيئة المشاة ودقة حركاتها وعلق على ذلك بقوله إنه بالرغم من أنه قائد للفرسان فإنه يود لو يكون

قائداً لمشاة كهؤلاء . ثم دنا من قائد الفرسان فامتدح خفة حركاتها وسرعتها ورشاقتها وأعرب له عن رغبته فى اقتناء نموذج من كسوة جنودها ، فتقدم إليه قائد الفرقة كسوته الخاصة .

وبينما كان إبراهيم باشا يتناول العشاء فى اليوم التالى على مائدة القائد الفرنسى نزع سيفه من جنبه ورجا القائد أن يقدمه إلى قائد الفرسان . وبعد أن سلمه له قال « أرجو منك أن تحمله لحظة فإن ذلك يكسبه فى نظر قائد الفرسان قيمة لم تكن له من قبل » . وهى جملة كبيرة المغزى لطيفة المعنى من رجل نعته الأوروبيون بالهمجية وسفك الدماء . وقد قدرت قيمة السيف فيما بعد فاذا بها تتجاوز عشرة آلاف فرنك .

وقد أظهر إبراهيم باشا مع الفرنسيين الكثير من اللباقة والفصاحة كما أفحم كل من صاوله فى الحديث ، فقد قيل إنه بعد إحدى الولائم سأل أحد الضباط أركان الحرب الفرنسيين كيف اتفق ذهابهم إلى أسبانيا قبل خمس سنوات لاستعباد أهلها ثم يجيئون الآن إلى اليونان لتحرير سكانها ؟ .

وصل إبراهيم باشا كما ذكرنا من قبل إلى الإسكندرية فى ٩ أكتوبر عام ١٨٢٨ ولم يحل اليوم السادس عشر من يناير سنة ١٨٢٩ حتى شرع فى إصلاح الحالة الإدارية بمديرية الشرقية ، وكان أكبر عون لوالده العظيم فى تنظيم الإدارة حتى أن قنصل الروسيا كتب لدولته فى أغسطس سنة ١٨٣٠ يقول :

« إن إبراهيم الذى أصبح الآن على رأس الإدارة المدنية والعسكرية لا يمل من التفتيش على أعمال هذه الإدارة ، وكثيراً ماتراه مرتين أو ثلاثاً فى اليوم عند الخزانة يراقب أعمال موظفيها. ولما وجد أن دار المحكمة التجارية لا تصلح لأن تكون مكاناً للقضاء أمر بأن تخرج منها الأرائك وتستبدل بها كراسى وعين كاتباً خاصاً ليدون محاضر الجلسات وأصدر الأوامر إلى جميع الإدارات أن تكتب الحسابات بالطريقة المزدوجة (الدوبيا) وأن تستخدم الأرقام الأوروبية .

وكتب عنه القنصل نفسه فى نوفمبر سنة ١٨٢٩ مانصه :

« دعا إبراهيم أعيان البلاد والكشاف ورؤساء المصالح الحكومية ليعقد منهم مجلساً مؤلفاً من أربعمائة عضو وستكون مداولاتهم سرية ، ويقال إن الغرض من دعوتهم هو أن يبحثوا فى الوسائل المؤدية إلى تحسين حال الشعب ووقف الهجرة وقطع دابر الفساد وتشجيع الأعمال الزراعية ويرجى أيضاً أن تؤدى مداولاتهم إلى تخفيف عبء الضرائب » .

وكتب عنه بعد ذلك يقول :

« يخشى الناس فى مصر إبراهيم وترتعد فرائصهم فزعا إذا سمعوا اسمه ولذلك تشعر الدوائر القنصلية بأن هذا الخوف قد يرفع عن كاهل الأهلين شيئاً مما يعانونه من ظلم المديرين وحكام الأقاليم إن لم ينجهم من هذا الظلم كله » .

وظل إبراهيم خلال وجوده بمصر بعد تلك الحملة لا يهدأ له بال يطوف أرجاء البلاد باحثاً منقباً فتراه يوماً يتفقد الجند

عند الشلال الثانى وتراه فى صبيحة الغد عائداً إلى الإسكندرية ليشرف على إنزال بارجة إلى البحر .

وكان إبراهيم يوجه الكثير من التفاته إلى شئون الزراعة فأدخل زراعة الزيتون والأناناس فى مصر وكان يحرص على أداء أجور العمال فى أوقاتها .

واقترنت أعماله كلها بالجد المتواصل والصلابة والسرعة ولكنه فى الوقت ذاته كان كيساً حسن التصرف .

وبينما كان إبراهيم يقوم بأداء كل هذه المهام العظيمة ومساعدة والده فى تنفيذ مشروعاته الضخمة كانت السياسة الفرنسية تسعى لتجرفه فى تيار دسائسها ومؤامراتها . ذلك أن خلافاً نشب بين فرنسا وباى الجزائر فرأت الحكومة الفرنسية إرسال حملة حربية إلى تلك البلاد لإخضاعها لنفوذها ، ولكن موقفها الدولى وكثرة مشاكلها وخوفها من منافسة الدول الأخرى لها حالت كلها دون إرسال هذه الحملة . فرأى قنصل فرنسا فى مصر أن يستعين بمحمد على باشا على القيام بهذه الحملة على أن

يتولى قيادتها ابنه إبراهيم باشا لضمان نجاحها وذلك لوثوق فرنسا من شجاعته ولاعتقادها أن الجيش الفرنسى لا بد أن يشترك فى نهاية الأمر مع الجنود المصريين فلا بد والحالة هذه ألا توضع الجيوش والأساطيل الفرنسية تحت إمرة قائد آخر لا تثق فيه فرنسا . وقد قال أحد وزراء فرنسا إن الملك بوضعه كبار رجال البحرية الفرنسية تحت إمرة إبراهيم يوليه ثقة لم يولها أحداً غيره .

ولما كان إبراهيم باشا يرمى ببصره دائماً نحو الشرق لا نحو الغرب وكان يتطلع دائماً إلى جعل مصر نواة لدولة عربية عظيمة فان فتح الجزائر لم يكن بالأمر الذى يتفق مع أغراضه ونواياه بل يبعده عن هدفه الأساسى وهو فتح بلاد الشام .ولذا فقد فشلت المفاوضات مع فرنسا ولم يقم محمد على و إبراهيم بهذه الحملة التى كانت تسعى إليها فرنسا .

حرب الشام الأولى

دخلت مصر الحرب بجوار تركيا فى بلاد اليونان دون أن يكون لها من وراء هذه الخطة أى مطمع بل على العكس كانت تعلم تمام العلم غرض الباب العالى من جرها معه فى تلك الحرب الدامية ، فلم يكن يرجو من ورائها فى حقيقة الأمر إلا الاستعانة بجيوشها فى إخضاع الثائرين ، كما كان يرجو أن تستنفذ مصر مواردها التى نماها محمد على فى السنوات الأخيرة و يشترك جيشه وأسطوله الحديث فى هذه الحرب فلا يتفرغ لمطالبته بامتيازات أخرى .

وخرجت مصر من هذه الحرب المريرة بعد أن ضحت بالكثير وعانت مرارة الهزيمة التى منيت بها كما لاقت الأمرين من تعنت الدول الكبرى وظلمهم وحرمانها من ثمرة انتصارات جيوشها .

ولم تقدر تركيا عظم التضحيات التى بذلتها مصر فى هذه

الحرب الدامية فلم تكافئها بشيء واكتفت بأن أسندت إلى محمد علي حكم جزيرة كريت . ولم يكن هذا التعويض ذا قيمة تذكر إذ لم يكن من السهل السيطرة على هذه الجزيرة أو حكمها بالنسبة لكثرة الفتن والثورات التي لا تنقطع في أرجائها .

خرج محمد علي وإبراهيم من حرب المورة وقد تضعضعت قواتهم البرية ومنى أسطولهم بالهزيمة ولكن هذه المحن والكوارث لم تكن لتزيدهم إلاّ صلابة على صلابتهم وقوة على قوتهم وتلك هي وأيم الحق مميزات الزعامة الحقة التي لا تخضع للكوارث ولا تتأثر بالنكبات بل تعاود العمل المتواصل لعلاج الموقف بكل ما فيها من قوة .

فلم يكد يمضي شهران بعد انتهاء حملة المورة إلا وشرع محمد علي في إعادة بناء أسطول جديد وإقامة دور لصناعة السفن في مصر وإعداد جيش بري جديد مجهز بأحسن المعدات الحربية ومدرب على أحدث النظم العسكرية .

أسباب الحملة على مصر

كان محمد على باشا و إبراهيم يعتقدان أن حدود مصر الطبيعية يجب أن تكون عند طوروس . فما إن استتبت لهما الأمور فى مصر حتى كاشفا السلطان برغبتهما. ويقول بعض المؤرخين إن محمد على طالب الباب العالى بولاية الشام أثناء حملته على جزيرة العرب وكانت حجته فى ذلك أن الحملة على الوهابيين تتطلب إمدادات قوية تصلها عن طريق الشام .

فلما انتهت الحملة على بلاد اليونان عاد محمد على بمطالبة السلطان بولاية الشام تعويضاً عما تكبده الجيش المصرى من الخسائر فى حرب المورە ، ولما لم يجبه السلطان إلى طلبه اعتزم أن يناله بحد السيف. ورأى ضرورة ضم سوريا إلى مصر لأن موقعها يجعلها بمثابة الحاجز بين مصر وتركيا فتتقى بذلك مصر شر الدولة العثمانية إذا حدثتها نفسها يوماً بغزوها .

ولم يكن السلطان خالص النية نحو مصر بل كان ينظر بعين

الحسد إلى تقدمها وميلها إلى الخروج عن سلطته فكان يسعى دائماً إلى استرداد مركزه فيها كما أخذ يتربص لمحمد علي لينتقم منه وينتزع منه حكم مصر . ولم يحل بينه وبين تنفيذ رغباته سوى ضعف تركيا وانتشار الفوضى والارتباك فى جيوشها بعد خروجها من حرب اليونان وضياع بعض ممتلكاتها .

وانتهز محمد على فرصة ضعف تركيا وتفكك جيشها وخاصة بعد أن ألغيت فرقة الانكشارية سنة ١٨٢٦ وهى التى كانت قوام الجيش التركى ، وعمل على تلمس الأسباب لفتح الشام وخاصة إنه قد تم له إعداد الجيش البرى النظامى الذى قضى فى إعداده سنوات عدة كما كان قد تم له إعداد أسطول ضخم أنشأه فى ترسانة الاسكندرية . وشجعه على هذا الغزو أيضاً حالة الشعب السورى الذى أصبح يمقت الحكم التركى لما فيه من الظلم والمساوىء المتعددة .

وأراد الباب العالى فى هذه الأثناء أن يوقع بالعداوة والبغضاء بين إبراهيم باشا ووالده . .

فلجأ إلى حيلة ساذجة لا تؤثر إلا فى عقول الضعفاء فمنح

إبراهيم لقب (أمير مكة) اعترافاً بفضله فى الاستيلاء على الحرمين وهو اعتراف جاء متأخراً .

ولقب أمير مكة هو أعلى ألقاب الشرف التى يستطيع أن يمنحها السلطان ، و يقدم صاحبه على جميع وزراء الدولة العثمانية و بهذا الوضع أصبح لإبراهيم الرياسة الدينية على أبيه .

ولكن إبراهيم الرجل المحنك الذى اشتهر طول حياته بوفائه و بره لوالده وخضوعة المطلق له وتنفيذ جميع أوامره ورغباته مهما اختلفت آراؤهما ، لم تكن لتؤثر فيه هذه الحيلة الساذجة فظل على وفائه و إخلاصه لمحمد على مقتنعاً بأن أعظم مفاخره أن يكون فقط ابن محمد على وساعده الأيمن .

و بينما كان محمد على يحكم مصر كانت بلاد الشام يحكمها رجل آخر هو عبد الله الجزار . وكلاهما طموح يبغى مجالا واسعاً لمطامعه ، فكان تجاورهما لا بد أن يؤدى فى نهاية الأمر إلى وقوع النزاع بينهما لأن كلا منهما حجر عثرة فى سبيل الآخر .

وسنحت الفرصة التى طال انتظار محمد على لها حينما ازدهى عبد الله على والى مصر تحت تأثير نفوذ الباب العالى ويقال إنه حاول مرة أن يدس السم لمحمد على و إبراهيم .

وجعل عبدالله من بلاد الشام معششاً للمؤامرات على مصر كما جعلها ملجأ للفارين من الجندية والضرائب فلما طالبه محمد علي برد الرعايا المصريين لم يكن منه إلا أن أجابه أن سكان مصر ما هم إلا رعايا الباب العالى يحق لهم الإقامة فى أى بلد أرادوها طالما أن الباب العالى هو سيد الجميع .

ولم يعد بد بعد ذلك من أن يكون السيف هو الحكم الفاصل بينهما . وفى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٣١ سير محمد على حملته المشهورة عَلَى بلاد الشام ووضع على رأسها ابنه البطل الفاتح إبراهيم .

وكانت الحملة جميعها مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل وأسطول مكون من ست سفن حربية و ١٧ سفينة نقل تحت إمرة الأميرالاى عثمان نور .

وسار الجيش المصري وعدده ٢٥٫٠٠٠ مقاتل منهم ٣٠٠٠ فارس في ذات الطريق الذى اتبعه نابليون بونابرت عند ما غزا فلسطين ، فتحرك الجيش من الخانكة وسار منها إلى بلبيس ثم إلى القرين ومنها إلى الصالحية ثم إلى قطية و بير العبد إلى أن وصل إلى العريش ومنها إلى خان يونس ثم إلى غزة ومنها إلى يافا.

و بينما كان الجيش المصرى يجد فى السير إلى أرض فلسطين أقلع الأسطول المصرى من الإسكندرية حاملا إبراهيم باشا وأركان حربه ومنهم الكولونيل سيف وعباس حلمى باشا وقوة من الجيش وعدداً من المدافع والمؤن والذخيرة واتجه صوب يافا .

ونزل إبراهيم باشا إلى البر فى حيفا ولم يكن معه سوى ستمائة من رجاله حيث التقى أولا بالقبائل الوطنية الضاربة حولها . وقد تردد زعماء هذه القبائل بين الانضمام إلى إبراهيم أو البقاء تحت إمرة عبد الله الجزار ولكنهم لما رأوا العمارة البحرية المصرية أيقنوا أن إبراهيم باشا أشد بأساً ، فجاءوا إليه يعرضون عليه خدمتهم فى الظاهر و يبيتون له فى الباطن ، ولكن

إبراهيم أدرك ما تكنه صدورهم وما توسوس به نفوسهم فقابلهم بالبشاشة وقال لهم (لا مانع عندى من أن تكونوا فى خدمتى ولكننى سأحتفظ بأولادكم رهائن عندى حتى أتثبت من إخلاصكم) . لم يعد هناك بد لهم بعد ذلك من الانضمام إليه .

وفى هذه الأثناء كان الجيش المصرى البرى قد احتل غزة بعد أن فرت منها الحامية التركية ثم زحف على يافا فأخلاها الأتراك ودخلها الجيش المصرى ، ثم تابع تقدمه حتى وصل إلى حيفا حيث التقت الجيوش البرية بالحملة التى جاءت من طريق البحر واتخذها إبراهيم باشا قاعدة للعمليات الحربية وبدأ منها الزحف على عكا .

حصار عكة فى نوفمبر سنة ١٨٣١

كانت عكا أشبه بحصن حصين صعب المنال استعصت من قبل على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة . وزاد الجزار فى استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سوريا فصارت

أمنع مما كانت ، ولذا كان عبد الله مطمئناً إلى امتناعه بها واثقاً من عجز الجيش المصرى عن اقتحامها .

وزحف الجيش المصرى على عكا وحاصرها منذ يوم ٢٦ نوفمبر ، وتعاون الجيش والأسطول فى حصار المدينة كما تعاونت مدفعيتهما فى تدمير حصونها ولكن المدينة ردت عليهم بالمثل وأحدثت أضراراً فى بعض قطع الأسطول المصرى اضطرت بعدها إلى الانسحاب من المعركة والرجوع إلى الاسكندرية لإصلاح ماأصابها كما استعصت المدينة أيضاً على الجيش المهاجم . ومرت الأسابيع والأيام وعكا مستعصية على الجيش المصرى وقلقت الأفكار ولكن محمد على كان مطمئناً ثابت الجنان موقناً بالنصر وكان يردد القول (ستستقيم الأمور بعد سقوط عكا) ولكن عكا لم تسقط وقلقت أفكار الشعب وكثرت الأراجيف فأصدر محمد على باشا فى مارس سنة ١٨٣٢ أوامر مشددة تحرم إذاعة أنباء الحرب فى مصر .

وفى التاسع من مارس عام ١٨٣٢ حمل إبراهيم على المدينة حملة شديدة لكنه عجز عن اقتحامها فاستقر رأيه على أن يترك حولها خمسة آلاف من رجاله ويتفرغ هو بمن بقى معه من جيوشه لقتال الجيش التركى الذى سيره السلطان لقتاله .

ولم يقف إبراهيم باشا مكتوف الأيدى طوال مدة حصاره لعكا بل أخذ خلال هذه المدة يستولى على المواقع المهمة فى ولاية صيدا وما حولها فاحتل صور وصيدا وبيروت وطرابلس كما أرسل قوة أخرى احتلت القدس .

وخاف السلطان مغبة هذا الفوز فأصدر فرماناً رمى فيه كلا من محمد على باشا وإبراهيم بالمروق والعصيان وأعلن فيه حصار ثغور مصر كما أصدر فرماناً آخر فى مايو سنة ١٨٣٢ بتجريد محمد على وإبراهيم وإباحة دمائهما .

غير أن وسائل هذا الإعدام كانت قد بليت ولم تعد الفتاوى والفرمانات لتجدى نفعاً أمام المدافع والسيوف

فسير السلطان جيشاً إلى آسيا الصغرى مؤلفاً من ٦٠٫٠٠٠ مقاتل ورسم بنفسه الخطة الحربية له .

وفى ٨ يولية سنة ١٨٣٢ التحم إبراهيم باشا بهذا الجيش التركى فى حمص ودامت المعركة ثلاث ساعات ونصف أبدى فيها المصريون من ضروب البسالة ماأدهش الأتراك .

وتعد معركة حمص من أهم المعارك التى خاضها الجيش المصرى . فقدكانت أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصرى والتركى وجهاً لوجه وكلاهما يتبع بقدر استطاعته النظام الحربى الحديث وكانت قوات الجيشين متعادلة، فكلاهما مؤلف من ٣٠ ألف مقاتل ، ولذلك كان لانتصار الجيش المصرى تأثير كبير فى الأذهان لأن أحداً لم يكن يتصور أن جيش السلطان يهزم أمام الجيش المصرى .

ولا شك فى أن هذا النصر يرجع أولا وآخراً لعبقرية إبراهيم باشا الذى عرف كيف يقود قواته فى هذه المعركة لإحراز

الفوز الساحق بفضل خطته الرائعة التى وضعها وطبقها مستخدماً مبادىء الحرب فى كل خطوة من خطواتها ، ثم تابع إبراهيم باشا فتوحاته فاستولى على حماه وحلب فى ١٤ يولية .

وسارع حسين باشا مع فلول جيشه إلى مضيق بيلان فهرع إليه إبراهيم وأنزل به هزيمة أخرى ثم أرسل جزءاً من جيشه فاحتل الأسكندرونة بعد أن فرت منها الحامية التركية .

وبهذا الغزو تجاوز إبراهيم حدود سوريا الشمالية ودخل بلاد الأناضول .

وجهز الباب العالى جيشاً ثالثاً بقيادة رشيد باشا قوامه ٥٣ ألف جندى فالتحم به إبراهيم باشا فى معركة فاصلة عند قونية انتهت بأسر القائد التركى وتشتيت شمل قواته وأسر جانب كبير منها . وبهذا النصر أصبح إبراهيم باشا وجيشه على مسيرة ستة أيام من الإستانة .

صلح كوتاهية

خشيت روسيا أن يصل إبراهيم بفتوحاته إلى أبواب الدردنيل فعقدت مع السلطان معاهدة أشبه ماتكون بالحماية أدت إلى بسط سيادتها على تركيا ، ولكن انجلترا وفرنسا خشيتا مغبة هذا الأمر فسعتا لدى محمد على حتى تم الاتفاق بينه و بين الباب العالى فى مايو سنة ١٨٣٣ على أن يتخلى السلطان محمود عن سوريا وأدنة لمصر مع تثبيت تبعية الحجاز وكريت لواليها محمد على

حرب الشام الثانية

الحكم المصرى فى سوريا

بعد صلح كوتاهية الذى توج انتصارات الجيش المصرى دخلت الشام تحت حكم الدولة المصرية ، وصار إبراهيم باشا حاكماً عاما للبلاد السورية فوق كونه قائداً عاماً للجيش المصرى فأخذ فى تنظيم أمور البلاد الإدارية والسياسية والحربية ، وأقر

الأمن والنظام وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على زراعة ومحاصيل الأهالى وأملاكهم وأرواحهم .

وعنى إبراهيم أيضا بتوطيد مركز مصر الحربى فى سوريا فأمن حدودها الشمالية وحصن مضايق طوروس ورمم حصون عكا وأسوارها وشيد الثكنات والمستشفيات وأنشأ الطرق الحربية فى حين استقرت الحاميات المصرية فى أهم المدن السورية .

الثورات فى الشام

لم يكن الباب العالى خالص النية فى اتفاقه مع مصر كما أن الدول الكبرى لم تكن راضية عن هذا التوسع المصرى ، فعملت كل من تركيا وانجلترا على تأليب العناصر الموالية لها ضد مصر وبث روح الثورة فى فلسطين وسوريا وشجعت عناصر الفتنة التى ظهرت بسبب احتكار الحكومة للحرير وجبايتها ضريبة الرءوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم ، وتجنيد الأهالى ونزع السلاح من أيديهم ، فشبت الثورة فى فلسطين فى إبريل

عام ١٨٣٤ ووقعت اضطرابات فى دمشق وطرابلس وقامت الفتن فى عكا وصافينا والحصن وحلب و بعلبك ثم تلتها ثورات أخرى فى بلاد النصيرية وحوران وإنطاكية ، وقد تمكن إبراهيم باشا من إخماد كل هذه الثورات والقضاء على جميع هذه الفتن .

تأهب تركيا لحرب الشام الثانية

ولم تكن اتفاقية كوتاهية في الحقيقة إلا نوعاً من الهدنة لأن والى مصر ربح بمقتضاها شيئاً كثيراً حبب إليه الطموح إلى المزيد ، وخسر السلطان خسارة فادحة لم يسعه تلقاءها الا التعلل بالسعى لاستردادها ، فبدأ فى حشد جيوش تركيا استعداد لغزو الشام مرة أخرى .

وفى خلال ذلك حدثت مفاوضات بين تركيا ومصر لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية ولكن هذه المفاوضات اخفقت إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها . فجعلت تركيا تزداد تحفزاً لتجريد جيشها على سوريا . ولم يكن غرضها استرجاع سوريا فحسب

بل كانت ترمى إذا ما ظفرت بالجيش المصرى أن تستمر فى زحفها حتى تغزو مصر .

وصمم حافظ باشا قائد الجيش التركى على الزحف على الشام من جهات أورفا وديار بكر حيث لا تفصلها عن الشام جبال وعرة كجبال طوروس .

ولم يكن إبراهيم بغافل عن نيات الأتراك فقد علم بما انتووه فحشد معظم جنوده حول مدينة حلب ليرقب حركات الجيش التركى ويصد هجماته من كل طريق يجيء منه ، وجعل طلائع وحداته تعسكر فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية .

ولكى نبين أهمية العمليات الحربية التى قام بها إبراهيم باشا نورد هنا بعض ما قاله أحد مارشالات فرنسا فى ذلك الوقت حيث قال : (١)

« إن حملة سنة ١٨٣٢ تشرف إبراهيم وتعلى شأنه . ويقينى أن الملمين بالشؤون العسكرية والخبيرين بها ، يعترفون معى بأن

---

(١) مصر فى القرن التاسع عشر لإدوار جوان

تلك الحملة لا ينهض عليها انتقاد ولا يتناولها تجريح ، وأن قيادتها بنيت على أسلوب حكيم وقاعدة مستقرة وهمة عالية حينما قضت الظروف بتجريدها . هذا وإذا كان لنا أن نلوم إبراهيم باشا لأنه فى المعارك الثلاث التى وقعت بينه وبين الأتراك استخدم منذ بدء القتال صفوفه الثانية وجيوشه الاحتياطية فانه لوم غير عادل وذلك لعلمه برداءة الجيوش المحاربة وثقته فى الظفر بهم » .

معركة نزيب

٢٤ يونية ١٨٣٩

احتشدت طلائع الجيش التركى حول قرية نزيب وهى بلدة تقع فى الأراضى العثمانية ولكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف فاحتلت طلائعه القرى التى حول عينتاب واجتازت بعض قواته نهر الساجور وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا فتخطت بذلك الحدود المرسومة فى اتفاقية كوتاهية ، ثم تقدمت بعض وحدات من

الجيش التركى واستولت على قرية (تل باشر) بعد أن قتلوا وأسروا جزءاً من حاميتها .

وهنا تقدم إليهم إبراهيم باشا بجيشه من حلب لإجبارهم على إخلاء (تل باشر) ولكنهم سارعوا باخلائها إثر وصول الجنود المصرية ثم احتلوا مدينة (عنتاب) فاضطرت الحامية المصرية إلى إخلائها .

وكان إبراهيم باشا فى هذه الأثناء قد أرسل إلى والده بمصر ينبئه بتخطى قوات الأتراك للحدود المصرية وبخرقهم لشروط إتفاقية كوتاهية .

وفى منتصف يونية ورد خطاب من محمد على باشا يعهد فيه إلى ابنه بألا يكتفى بارجاع الأتراك إلى الحدود بل عليه حربهم وسحق جيشهم ما داموا لم يراعوا العهود والمواثيق . فأصدر إبراهيم باشا أوامره إلى قواده بالاستعداد لمهاجمة الجيش التركى الذى احتشد فى قرية (نزيب)

اعتزم إبراهيم باشا أن يكون هو البادئ بالهجوم ليحتفظ

إبراهيم باشا مع أركان حربه فى ميدان موقعة تزيب

بمبدأ المباداة وحرية العمل فتقدم يوم ٢٠ يونية ١٨٣٩ إلى قرنية (مزار) جنوب غربي نزيب فاحتلها دون مقاومة تذكر ثم اتخذها قاعدة لعملياته الحربية ، وتشكلت وحدات جيشه فى ضواحيها على الضفة اليسرى من النهر المسمى باسمها .

وفى يوم ٢١ يونية قام إبراهيم باشا وبصحبته سليمان باشا الفرنساوي ومعهما قوة من العرب والفرسان والمدفعية بغارة استكشافية على مواقع الجيش التركى أيقن بعدها إبراهيم باشا باستحالة مهاجمة المواقع التركية بالمواجهة وأن أنجح خطة هى الالتفاف حول جناح الأتراك ومهاجمتهم من الخلف . فشرع فى الانسحاب من مواقعه الأولى استعداداً للالتفاف حول الأتراك الذين أصابهم الجمود فلم يحركوا ساكناً لمهاجمة الجيش المصرى أثناء قيامه بهذه الحركة ، كما نصحهم بذلك مستشاروهم من الألمان ، وظلوا مرابطين خلف استحكاماتهم المنيعة وأبوا مجابهة الجيش المصرى فى قتال متلاحم فى السهول المكشوفة .

وبدأ إبراهيم باشا فى تنفيذ حركة الالتفاف فترك مواقعه

الأولى وسار محاذيا نهر مزار ثم نهر كرزين عند ملتقاهما ، ثم انعطف شمالاً حتى بلغ الطريق الموصـــل من حلب إلى (بيره جك) ثم إلى ما وراء مواقع العدو فى نزيب ، فسار فى ذلك الطريق إلى أن بلغ قنطرة هركون القائمة على نهر كرزين وأمر الجيش بعبور النهر على القنطرة ، فعبره ليلا واحتشد على الضفة اليسرى خلف معسكر الجيش التركى ، وبذلك واجهه من أضعف جبهاته فاضطر حافظ باشا إلى تغيير إتجاه جيوشه ليواجه الجيش المصرى فى مواقعه الجديدة وقام بعمل استحكامات سريعة وعلى عجل بدلا من استحكاماته القديمة التى أصبحت بلا جدوى بعد أن تغير موقف الجيشين .

هجوم الأتراك الليلى

وقد حاول حافظ باشـا مهاجمة الجيش المصرى فى ليـلة ٢٤ يونية مؤملا الظفر به ولـكن إبراهيم باشا كان يقظاً لمثل هذه الحركات ففتكت نيران مدافعه بعدد كبير من قوات الأتراك وأجبرتهم على الانسحاب .

وفى صباح يوم ٢٤ يونية بدأ إبراهيم باشا فى تنفيذ خطته ، وكان جناح الأتراك الأيمن يرتكز على أخوار عميقة ليس من السهل اجتيازها ، وكان القلب تحميه الاستحكامات التى أقامها الأتراك أما الجناح الأيسر فكان يرتكز على غابة من أشجار الزيتون ، كما كانت تقع تجاه هذا الجناح رابية عالية أهمل الأتراك احتلالها فسير إليها إبراهيم باشا بعض قواته بقيادة سليمان باشا فاحتلها وتعرضت بذلك قوات الأتراك لنيران المدفعية المصرية .

وكانت فطنة إبراهيم باشا و بعد نظره ومسارعته إلى احتلال هذه الأكمة العالية السبب الرئيسي فى كسب هذه المعركة .

ودامت المعركة بعد ذلك ساعة ونصف تأرجح النصر فيها بين الجيشين ولكن ثبات إبراهيم باشا وشجاعته و بسالة الضباط والجنود المصريين أدت فى النهاية إلى نصر مبين ، ولاذ الأتراك بالفرار تاركين أسلحتهم ومدافعهم وذخائرهم وخيامهم

وكل ما فيها من عتاد حتى إن حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة وفيها أوراقه وأوسمته . فكانت معركة نزيب نصراً مبيناً للجيش المصري .

نتائج المعركة

ولقد كان لهذه المعركة نتائج حربية وسياسية بعيدة الأثر وهى :

١ ـ قضت على قوة تركيا الحربية

٢ ـ أنقذت مصر من الخطر الذى كان يتهددها من ناحية تركيا

٣ ـ حفظت استقلال مصر

٤ ـ كانت أحد الأسباب المباشرة لتسليم الأسطول التركى إلى محمد علي باشا فى الاسكندرية .

٥ ـ جعلت مصر تبلغ أوج مجدها وقوتها فى عهد محمد علي باشا

تدخل الدول الأوروبية

رأت دول أوروبا الجيوش المصرية تقف مرة أخرى على أبواب السلطنة العثمانية فعقدت العزم على حرمان مصر من ثمرة انتصاراتها والقضاء عليها قبل أن تستفحل شوكتها في الشرق.

فعقدت فيما بينها معاهدة لندن وهي التي قضت بحرمان مصر من حقوقها في بلاد الشام ولكن محمد علي رفض قبول هذه المعاهدة فأقدمت روسيا وفرنسا وانجلترا على تنفيذها بالقوة وأثارت في الشام الثورات والدسائس مما جعل مركز إبراهيم وجيشه حرجاً، حتى اضطر إلى الجلاء عن سوريا بعد أن تألبت عليه كافة القوى. ومع ذلك فقد استطاع العودة إلى مصر بالجانب الأكبر من قواته ومعداته بعد أن قاسى الأهوال، وأخلد إلى حياة الهدوء.

وفي أغسطس من عام ١٨٤٥ قصد إبراهيم باشا مع حاشيته إلى مدينة فرنيه في جبال البرانس الشرقية ليستشفي بمياهها

الكبريتية وفيها استقبلته البلدية استقبالا فخما وأقامت له أقواس النصر كتب على إحداها بحروف من نور :

« إلى بطل قونيه ونزيب »

وكتبت على الثانية :

« إلى ابن محمد على الأمجد »

« إلى رافع لواء المدنية فى الشرق »

« إلى صديق الفرنساويين »

« إلى البطل المصرى »

وفى ٢٥ أبريل سنة ١٨٤٦ سافر إلى باريس فاستقبله ملك فرنسا استقبال الملوك وأسكنه فى قصر الأليزه فى الجناح الذى سكنه من قبل نابليون الكبير، ونام إبراهيم باشا فى ذات السرير الذى نام عليه نابليون ، كما أقيمت له المآدب الرسمية العديدة ودُعى إلى عرض عسكرى اشترك فيه ثلاثون ألف جندى

فرنسى وشهده ثمانية من الأمراء وست من الأميرات تحيط بهم هيئة عسكرية مؤلفة من ستين جنرالا مع طائفة من كبار القواد فى حين أشاد الكتاب بعظمة إبراهيم وقدرته الحربية . ومما قاله أحد الكتاب الفرنسيين :

« لم ترأورو با جنديا أشجع منه ولا أكرم منه ، خلق للنصر والنصر خُلق له ، إذا فتحت أمامه بلاد الدنيا غزاها من أولها إلى آخرها » .

وفى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٤٨ ساءت حالة محمد على باشا الصحية فصدر فرمان بتولى إبراهيم باشا عرش مصر .

ولكن المنية عاجلته فمات فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ .

خاتمـــة

كان ابراهيم باشـا رجلا مملوء الجسم قصير القـامة واسع المقلتين براق العينين ، عالى الجبهة ، ذا لحية تبرز شعراتها من وجه كساه كثير من آثار الجدرى. وكان رغم قصره وامتلاء جسمه تبدو على مظهره كل دلائل النشاط والذكاء وحب المغامرة والرغبة فى العمل ، وقد وصف شخصيته كاتب عرفه عن قرب فقال :

«هو رجل لاتفارقه الهيبة ولا حب العدالة . أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة ، شجاع رحيم لين العريكة لـكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه مالا تطاوعه نفسه هو على عمله ، تطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده » .

وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ـ يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به ولا يحيط به فى تنقله سوى أربعة أو خمسة من رجاله . وكثيراً

ما كان ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره . وهو حدب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويصغى إلى قصصهم ويبث فى قلوبهم الشجاعة ويشاركهم فى شعورهم واجتماعاتهم ويجلس معهم فى مضاربهم كأنه واحد منهم ولكنه لا ينسى قط مقامه . ولم يعرف عنه أنه ضحى يوما بشرفه فسفك دماء أحد فى ساعة من ساعات غضبه . ولما كان إبراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج سريع الغضب فإنك تراه أحياناً إذا استثير يمشى ذهاباً وجيئة ويشم السعوط ويطلب قصبة التدخين كأنه يهدىء بهما أعصابه قبل أن يصدر أوامره .

وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوؤه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل ، يبث فى جنوده روح الشجاعة والإقدام ويضرب لهم بنفسه خير مثل فى البسالة وخوض الغمرات ، وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وينصب من المكائد . لكن الجيوش كلها لا تخلو من الساخطين ولم يسلم خير القواد وأعقلهم

من عداء المخادعين ، وخليق بنا أن لا نحكم على إبراهيم بما يقوله فيه الفرنسيون الواجدون عليه الجاحدون لنعمته ، وأن نستشعر الحذر حينما نقرأ ما كتبته عنه بعض الجرائد الأوروبية . وليس معنى هذا أن إبراهيم كان معصوماً من الخطأ ، كلا فإن له أغلاطه ولكنه لم يكن بالرجل الفظ ولا المتلهف على المعالى . ولا ننسى أنه لولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز ، وأعلم الناس بذلك هو محمد على باشا نفسه .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٩	قوله
١٦	مولد ابراهيم
٢١	قدوم محمد على
٢٥	ابراهيم بعد عودته لمصر
٢٦	ابراهيم حاكم الوجه القبلى
٣٠	ابراهيم قائد حملة الحجاز
٣٤	ابراهيم منقذ الحرمين الشريفين
٤٩	عودة ابراهيم
٥٢	ابراهيم باشا فى السودان
٥٧	حرب اليونان
٦٤	حصار نافارين
٦٩	بطل ميسولونجى
٨٥	معركة نافارين
٩٧	ابراهيم بعد حرب المورة
١٠١	حرب الشام الأولى
١١٣	حرب الشام الثانية
١١٧	معركة نزيب

المراجع الهامة

١ كتاب مصر فى القرن التاسع عشر لادوار ڈجوان

٢ عصر محمد على للرافعى باك

٣ ابراهيم مصر لكريتش

٤ ابراهيم باشا ترجمه محمد بدران

٥ مصر الحديثة لفولابل

٦ صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على للأمير عمر طوسون

٧ الجيش المصرى فى عهد محمد على لعبد الرحمن زكى

٨ إبراهيم باشا

٩ الحروب فى سوريا لشارلز نابيير

١٠ معركة نزيب لعزيز خانكى باك

١١ محمد على لكريم ثابت باشا

١٢ مذكرات الأستاذ شفيق باك غربال فى عهد السودان

١٣ أعداد مجلة الجيش

obeikandl.com

من سير الأبطال

الحلقة الأولى

أشهر قادة الحرب العالمية الثانية

تأليف

بكباشي ا . ح
عبد الفتاح حسن

بكباشي ا . ح
احمد الأرفلي

منقريوس نظمي

بمعهد الدراسات للغباط العظام

لون جديد من ألوان الدراسة لأبطال الحرب العالمية الأخيرة تناول بالتحليل كثيرا مما يتصل بها من خطط ومشكلات وسير . وهؤلاء الأبطال عمل أكثرهم فى مناطق قريبة من مصر ، فجاءت سيرتهم سجلا دراسيا شاملا ، ومصباحا يمتزج نوره بأنوار المصابيح الأخرى فتتجلى الحقائق ، ويستفيد الدارسون ، وتحبب حياة الأبطال إلى التواقين إلى البطولة والبذل فى حماية الوطن واعلاء مجده .

يباع فى جميع المكتبات وسعر النسخة ٢٥ قرشا

العمليات الحربية

فى مصر وفلسطين

من أغسطس سنة ١٩١٤ — إلى يونيه ١٩١٧

تأليف

الليفتنانت كولونيل ا . كيرزى D.S.O,O.B.E., p.s.c.

نقله إلى العربية

يوزباشي

محمد على فهمى

ا . ح معهد الدراسات للضباط العظام

أحمد الأدفلى

سكرتير معهد الدراسات

للضباط العظام

دراسة قيمة لتاريخ الحملة العسكرية فى فلسطين قامت على ماورد بالوثائق والخرائط الرسمية وتوضح بها مدى تطبيق القادة لمبادىء الحرب ومدى مطابقة العمليات لما ورد بقوانين خدمة الميدان وما برز من الدروس المستفادة . وهو كتاب لاغنى عنه للضباط المتقدمين لامتحانات الترقى وامتحانات القبول بكلية أركان الحرب الملكية .

يباع فى جميع المكتبات وسعر النسخة منه ٤٠ قرشا

يظهر قريباً

أشهر حروب التاريخ

تأليف

بكباشى ا . ح . عبد الفتاح حسن

بكباشى ا . ح . منفريوس نظمى

بحث الحملات الحربية المقررة على الضباط المتقدمين

لكلية أركان الحرب الملكية

obeikandi.com

ريادو

تصر على إقتناء
قلم الحبر

كروكسلى

صناعة متقنة من أحسن
المعادن الممتازة

لم يعرض إلا بعد تجارب
عديدة

ريشته من الذهب
الخالص عيار ١٤ ك وتشتمل
بمعدن osmi-iridium

يسهل الكتابة
ينجعلها لذة

مضمون لأمد بعيد

يباع في كل مكان

سجاير فرجينيا

ذات الفم من الفل

Craven A

تجعل التدخين نقيا

مصنوعة من الدخان الفاخر

مطبعة السنة المحمدية
٥ شارع غيط النوبى
ت ٧٩٠١٧

obeikandl.com

و . ه . سفريان وشركاه

مصنع التريكو وفابريقة شال كليوباترا

المكتب بشارع فؤاد الأول نمرة ٦ ت ٧٨٩٩٠

صندوق بوستة نمرة ٩٧٤ مصر — سجل تجارى ٢٣٤١٠ القاهرة

يتشرفون برفع أسمى آيات الإجلال

لحضرة محمد على باشا العظيم

أولاد مناحم كلانته

٤٤ شارع شريف باشـــا

القاهرة

يتشرفون برفع اسمى ايات الإجلال

لحضرة محمد على باشا العظيم

obeikandl.com

ا . و ب . باليان

جواهرجية

المحل الرئيسى — حارة الصاغة رقم ٣٨

الفرعى — ٥٠ شارع عبد الخالق باشا ثروت

تليفون ٥٤٨٣٥ ص . ب — ٢٢١٣

سجل تجارى ٥٢٤٤٢ القاهرة

يتشرفون برفع أسمى آيات الإجلال

لحضرة محمد على باشا العظيم

شركة الجابرى

وكلاء فبارك

موردون ومصدرون

٥١ شارع ابراهيم باشا — القاهرة ص . ب ١٠٩١

تليفون ٤١١٥٩ س . ت ٧٠٥٦٠

يتشرفون برفع أسمى آيات الإجلال

لحضرة محمد على باشا العظيم

obeikandl.com